روايات تاريخ الإسلام



جرجي زيدان

الحجاج بن يوسف



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الحجاج بن يوسف

روايات تاريخ العرب والإسلام

الحجاج بن يوسف

رواية تؤرخ لحصار مكة واعتصام ابن الزبير فيها على عهد الامويين

تأليف

جرجي زيدان

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

لسان العرب

مقدمة تاريخية

انتهينا في رواية «غادة كربلاء» . الى مقتل الحسين بن علي وأهله في كربلاء بجوار الكوفة وما تلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . وكان عبد الله بن الزبير ما زال في مكة يدعو الى بيعته وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا بقيادة الحصين بن نمير، فحاصروه بمكة ، ثم جاء الخبر بوفاة يزيد وهم في الحصار. ولم يكن من أبناء يزيد من يصلح للخلافة ، فرأى الحصين ان الامر لا يستتب الا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه أن يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير.

أما أهل الشام فبايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثاني) . ولكن هذا لم يعش الا أياما ، فاختلفوا فيمن يبايعون بعده. وكان من امراء بني أمية وقتئذ مروان بن الحكم ، وقد تولى امارة المدينة في عهد يزيد، فلما علم بموته عاد الى الشام، فبايعوه . وكان شيخا طاعنا في السن، فتزوج ام خالد بن يزيد ليصغر نفس خالد عن طلب الخلافة. ويكتسب حزبه . ولكنه لم يحكم الا تسعة أشهر وبضعة عشر يوما، اذ خنقته امرأته هذه سنة ٦٥ هـ . فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان . وفي أيام هذا الخليفة زهت دولة بني أمية وتأيد سلطانها .

وأما أهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه وقاموا يطالبون ابن زياد وأصحابه بدمه وسموا أنفسهم التوابين .

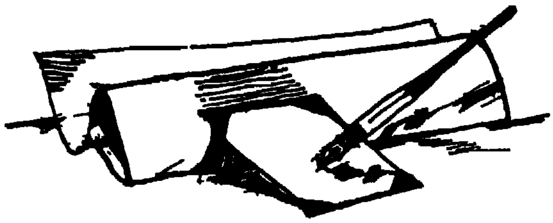
وفي سنة ٦٦ هـ . ظهر في الكوفة رجل اسمه المختار بن أبي عبيد، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير ، فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيدالله بن زياد وشمر بن ذي الجوشن وخولي الاصبحي وعمر بن سعد وغيرهم . على انه ما لبث أن غير دعوته، فأخذ يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين لأبيه ، وزعم ان جبريل يظهر له ، واتخذ كرسيا قال ان فيه سرا مثل سر تابوت العهد عند اليهود.

فلما استفحل أمر المختار في الكوفة ودان له العراق ، أصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك في الشام ومصر، والمختار في العراق والكوفة ، وعبد الله بن الزبير في الحجاز . وغضب عبد الله على المختار لنقضه بيعته فبعث لقتاله جندا بقيادة أخيه مصعب بن الزبير، فقتلوه

ودانت العراق لعبد الله، ولم يبق لبني أمية غير الشام ومصر .

ولكن عبد الملك بن مروان ما لبث أن حمل على مصعب في العراق بجند كثيف فقتله سنة ٧١ هـ . واسترجع العراق . وبعث جندا الى الحجاز ففتح المدينة، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي في جند لفتح مكة وفيها عبد الله بن الزبير، فحاصرها وطلب الى عبد الله أن يسلم فأبى . فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور في مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله.

ومن هنا تبدأ حوادث هذه الرواية . .



عزة الميلاء وليلى الأخيلية

المدينة أو «يثرب » . هي مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق وهي واقعة في منبسط من الارض تكتنفها الآجام والغياض، وتتخلل أبنيتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخل . وقد عمرت في صدر الاسلام، حتى كانت أيام يزيد بن معاوية فهاجر منها كثير من أهلها لكثرة الفتن والحروب في أيامه، ولكنها ما زالت آهلة بالناس، وفيها أهل البيت.

وكان من أهل المدينة في أواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها «عزة الميلاء» . وكانت مولاة للأنصار، وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز . وقد سميت «الميلاء» لتمايلها في مشيتها لفرط سمنها. وكان العود حديث العهد عند العرب فأجادت العزف عليه، عدا ما كانت تحسنه من العزف بالمزاهر وبقية آلات الطرب ، وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لايقدم قادم إلى المدينة إلا التمس أن يراها ويسمع غناءها.

وكان العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف، على أن عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار ، اذا جلست للغناء في حفل عام، أنصت لها الحاضرون وكأن الطير على رؤوسهم.

وكانت دارها في أقصى شمال المدينة مما يلي طريق الشام، يحيط بها بستان من النخيل تتخلله أشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح ، وعليه سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد في وسطه خوخة. وفي بعض جوانب البستان حظيرة مبنية من سعف النخل توضع فيها الدواب . وللدار باحة كبيرة في كل من جانبيها غرفتان ، وفي الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار ، وفي باحة الدار نخلات متقاربة تظلل الباحة في أثناء النهار .

ففي يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر أغسطس سنة ٦٩٣ م) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها . وكان يوما شديد الحر، والحر ثقيل هناك للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من أبخرة المستنقعات والاشجار. فلما دنت الشمس من الغروب دخلت الى مخدعها فأخرجت قارورة من الطيب فتطيبت ،وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونها

أصفر زاه، وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال وأرادت أن تتناول عشاءها على سطح البيت تحت قبه السماء.

وكانت يومئذ في نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمنها وذهبت استدارة وجهها وارتخى خداها واستطالا إلى أسفل الذقن، وثقل بدنها حتى لم يكن في المدينة دابة تحملها. وكانت قلما تنتقل من بيتها والناس يفدون عليها لسماع غنائها أو ضرب عودها ويحملون اليها الاموال والهدايا من الحلى والجواهر، حتى ملأت معصميها بالاساور والدمالج وطوقت عنقها بالعقود، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير، وعلقت في أذنيها قرطين كبيرين يتناسبان مع حجم أذنيها لأنها كانت كبيرتها مع تناسب التكاسير. وكذلك آذان أهل الغناء والموسيقى في الغالب.

وكان الرجل من أهل الوجاهة اذا أراد التزوج بفتاة لا يعرفها استشار عزة ووسطها في خطبتها أو استطلاع مدى جمالها وصحتها.

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر، وعندها فتاة من نزالة المدينة اسمها«سمية». كانت تحبها وتأنس بها وكانت الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها في أمرها، وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب أحمر يكسوها كلها. وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها أفراداً لا ترى جمالا باهرا، ولكن في عينيها ما يدل على الذكاء والحب، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول، حتى كانت وهي في أشد اضطرابها قلما تبدو الكآبة في وجهها، وربما زاد ذلك في هيبتها. وفي ذقنها اندفاع قليل إلى الامام مع بروز وهو دليل الانعطاف وفي انفها ذلف قليل يزيدها مهابة: وكانت في نحو الثالثة والعشرين من عمرها.

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح أمرت جارية لها ان تفرشه بالأبسطة وتعد عليه المائدة، وأمسكت ضيفتها بيدها وقالت لها مداعبة: «هلم بنا الى السطح يا سمية واتركي الهموم جانبا، وتعالى لأريك يثرب وضواحيها من سطح بيتي فانها من أجمل ما يكون، ولا تعجلي في العودة الى بيتكم فما أظن أباك قد عاد اليه بعد».

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وأرادت نسيان ما يجول في خاطرها من دواعي الهموم، وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز تحت قدمي عزة، حتى وصلتا الى السطح وقد انتهت الجارية من اعداد المائدة. فجلست عزة وأجلست سمية الى جانبها، ولاحظت انها ما زالت مضطربة البال فأرادت ان تصرف ذهنها الى شيء آخر فلم تر خيرا من أن توجه التفاتها الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها: «تأملي يا بنية في هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لا يقف في آخرها الا على التلال

البعيدة ، ولاسيما هذا الجبل ، وهو جبل أحد الذي جرت فيه الوقعة الشهيرة بين النبي (ﷺ) وقريش . وذكر هذه الوقعة يؤلمني لأن الغلبة فيها كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا وأصيب النبي بجراح وقتل عمه حمزة».

فقالت سمية : «وهل شهدت تلك الوقعة؟ ».

قالت : «كلا، فقد حدثت منذ سبعين سنة فكيف أشهدها ؟». ثم عادت الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت : «واني ليعجبني مناظر المياه حوالي غروب الشمس ، أنظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة اللامعة ، وظلال النخيل تتراءى على شواطئها مقلوبة كأنها مردة من الجان غائصون في الماء».

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد أرسلت أشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت ظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت بالظلام.

وأما سمية فكانت تساير عزة فيما تقول وبصرها شائع في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا أطلق سراحه يطلب النور. وكان سطح البحيرة بعد أن غابت الشمس ما زال يلمع بفعل انعكاس الشفق عليه ، وظلال النخيل فيه واضحة عليه وضوح الخطوط السود على الصفحة البيضاء . وبعد قليل لم يعد يظهر للرائي غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار .

■

اشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع ثم همت عزة بالطعام ودعت سمية الى مشاركتها فيه ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها فتأكل وعيناها شاخصتان الى تلك المناظر، ثم عادت عزة الى محادثتها فقالت لها : «مالي أراك صامتة يا سمية ، هل تفكرين في تأخر عودتك وتخافين ان ينقم عليك أبوك لهذا ؟ . انه اذا علم انك عند عزة فلن يلومك».

وتوقعت عزة ان تسمع من سمية جوابا ، ولكنها رأتها تحدق النظر في تلك البحيرة ، وآنست في وجهها بغتة وقد توقفت عن المضغ واللقمة لا تزال في فمها ، وقطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة سؤالها فأجابتها سمية وهي تشير بيدها الى البحيرة : «كأني أرى النخيل تنتقل في الماء . . . ما هذا . . . ؟ ماذا أرى ؟» . .

فالتفتت عزة الى جهة البحيرة فرأت ظلالا تتحرك في الماء بين ظلال النخيل ، ولكنها لم تر الأشباح على الجرف لأن الظلام حجبها بينما انعكاس الشفق على سطح الماء أبداها فقالت: «انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة» . وتفرست عزة قليلاً ثم قالت: «إن الذي نراه ظل شبحين أظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف، لا بل هما جملان

وعليهما رجلان. أليس كذلك؟».

قالت سمية : «بلى ، هما جملان . ويخيل الى أنهما ماشيان على سطح الماء ! » .

فضحكت عزة وقالت : «انك ترين ظليهما يا بنية ، وأرى الآن شبحا ثالثا أظنه جملا ثالثا » . ولم يمض قليل حتى توارت الأشباح فقالت عزة : «لا تقلقي ، ليس ما ترين الا أناسا أظنهم قادمين الى المدينة من دمشق ، وما هذه أول مرة رأيت مثل هذا المنظر ، فعودي الى طعامك فقد برد الهواء وانفثأت حمأة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام اسمعك صوتا تلقنته عن أستاذتي رائقة».

فعادتا الى الأكل وهما لا تتكلمان، ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفقت عزة فجاء رجل في نحو الستين من عمره ما زالت آثار الجمال بادية فيه، وهو نظيف الثوب حسن الهندام. فلما رأته سمية غطت وجهها، فضحكت عزة وقالت : «أتحتجبين من مخنث ؟ ». ولم تكن سمية قد عرفته في الظلام.

وكان في المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، يخالطون النساء، وأكثرهم يحبون الغناء ويحسنونه. وكان من أراد خطبة امرأة سأل عنها أحد المخنثين فيصفها له، ثم يتوسط بينه وبينها حتى يتزوجها . وكان أكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها ليستفيدوا منها تعلم الأصوات.

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت : «ما جاء بك يا طويس ؟».

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت ؛ «أطويس هذا ؟».

قالت : «هو بعينه ، ولا تعجبي من أنه جاء على غير موعد فان ذلك دأبه معنا». ثم التفتت اليه وقالت : «يا طويس قل للجارية تضيء لنا الشموع فاننا سننزل بعد قليل».

قال : «أفعل ذلك بشرط».

قالت : «وما هو ؟».

قال : «تغنين لي شعرا على الهزج».

قالت : «أتطلب أن أغني لك الهزج وأنت أهزج الناس ؟ ألا سألتني أن أغني من الثقيل أو الرمل ؟».

قال : «لا أبالي أي صوت وانما أقترح عليك شعرا تغنينه».

قالت : «أفعل ان شاء الله، ولكني أخاف من وجهك فانه مشؤوم».

قال: «وأكثر من مشؤوم فإن أمي ولدتني ليلة قبض النبي (ﷺ). وفطمت ليلة مات أبو بكر، وبلغت الحلم ليلة قتل عمر، وزففت إلى أهلي ليلة قتل عثمان، وولد لي يوم قتل علي !».

فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له : «أرجو ألا يكمل شؤمك علينا الليلة ، فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك».

■

نزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة المعدة لاستقبال الأضياف . وجلست عزة على مقعد ، والارض مفروشة بالطنافس وحولها الوسائد وقد أوقدت فيها الشموع. وجلست سمية بجانبها وعادت الى هواجسها . وأما طويس فانه تناول دفا مربعا كان معلقا على الحائط بين طائفة من الأعواد والمزاهر والدفوف، ورماه في حجر عزة.

فقالت : «ويلك ! ماذا تريد ؟».

قال : «بأبي أنت وأمي. أريد أن أسمع غناءك».

قالت : «تمهل يا طويس ريثما استريح».

وفيما هي تكلمه سمعت هدير الجمال بقرب باب البستان فقالت : «انظر يا طويس من جاءنا الليلة . . اني أخشى ان يكون شؤمك قد وصل الينا».

قالت سمية : «وأي شؤم تخافين ونحن في أمان ؟ ! ».

قالت وقد خفضت صوتها : «ما أظننا في أمان وأميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله (ﷺ) . اذهب يا طويس وانظر من القادم».

فهرول طويس الى نعليه ولبسهما، ومشى وهو يتظاهر بالمجون في مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب وأطل منها، فرأى جملين بجانبهما رجلان : «أحدهما قد تلثم بالكوفية والتف بالعباءة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه ان يكون خادما . فقال لهما : «من أنتما وماذا تريدان ؟».

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال : «أليس هذا بيت عزة الميلاء ؟ ».

قال : «بلى وماذا تريد منها ؟.

قال : «أريد الدخول اليها».

قال : «ومن انت ؟ الا انتسبت ؟».

قال : «لا أنتسب».

قال : «أتريد الدخول وأنت ملثم كما أرى ؟ !».

قال : «نعم».

قال : «دعني أستأذن لك». وعاد طويس الى عزة وأخبرنا بما رآه. فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة: «دعيني أنصرف إلى أبي فقد طال مكثي عندك اليوم، ولا سيما أني

أرى رجالا قادمين اليك ولا يليق بي البقاء معهم».

قالت : «لك الخبار يا بنية ، ولكن اذا انصرفت فلا تطيلي الغياب ، وليكن خروجك من الباب الخلفي للدار ، وذهابك من الطريق القريب الذي تعرفينه». فودعتها وانصرفت ، وجعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه، ثم التفت الى عزة وأشار بضم أنامله وزم شفتيه الى أنها جميلة. فأومأت اليه ان يصمت ثم قالت : «أخرج الى الطارق واطلب اليه ان يريك وجهه أو يذكر لك اسمه».

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : «ان صاحبنا من أهل البادية ويهوى الغناء ، وقد جاء لسماع عزة الميلاء، وقد سألته عن اسمه فأبى ان يخبرني به، ولما ألححت عليه قال انه لا يقول اسمه ولكنه أنشدني هذين البيتين :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

«وطلب أن أخبرك انه قائلها».

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت، ولولا ثقل بدنها لوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف. فقال لها طويس : «ما بغتك يا عزة ؟».

قالت : «ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟».

قال : «كلا . . . ومن هو ؟».

قالت : «لو اني سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان في غير هذا الشعر. ألم تر أنه بلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل أهل بهرا ؟».

قال : «أظنني لحظت ذلك فيه، ولكن ماذا في هذا ؟».

قالت : «ويلك ! هذه هي ليلى الأخيلية الشاعرة، وهذا الشعر شعرها، وهي تكسر حرف المضارعة في لفظها أيضا».

قال طويس : «إذا كانت هذه هي ليلى فقد تم حظنا، لأني أسمع بنبـ.ـها وحديثها مع توبة الذي كان يهواها، فهل أدعوها؟».

قالت : «كيف لا وهي صديقتي ويندر ان تنزل الى المدن الا لحاجة ماسة لأنها تقطن البادية».

فأسرع طويس مهرولا حتى أتى الباب ففتحه، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهي ملتفة بالعباءة وطولها يندر في النساء. ولكنه لم يتمكن من رؤ ية وجهها لأنها كانت ما زالت ملثمة فدخلت البستان وأشارت الى خادمها ان يدخل الجملين الى الحظيرة ومشت تخطر في مشيتها وطويس يمشي وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعا.

فلما أقبلت على القاعة نهضت عزة وسارت لاستقبالها عند الباب وهي تقول : «مرحبا بليلي، أهلا بك يا حبيبة . لقد بالغت في الاختفاء حتى أسأنا معاملتك وأخرناك». قالت ذلك وتناولت وسادة فوق البساط وثنتها وأجلستها عليها.

فقالت ليلى بصورتها الجهوري الذي لا يكاد يشبه أصوات النساء : «لا بأس عليك، وان لم يكن ذلك ذنبي لأني كنت أحسبك تعرفينني من صوتي ولهجة كلامي».

كان طويس واقفا بالباب يتشوق لرؤ ية وجه ليلى ولكنها بقيت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجه لتخلو الى عزة. فأدركت هذه ما في نفسها فقالت : «لاتحتجبي يا ليلى منه، انه طويس المغنى».

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وأزاحت اللثام وهي تقول : «أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟ لقد تم سرورنا بلقياه ! » .

فلما أزاحت النقاب بان تحته وجه يتدفق مهابة وعينان دعجاوان وثغر حسن، وآثار الصحة بادية في وجهها من سكنى البر . فدهش طويس من جمالها ، ولما رأى استئناسها به فرح وقال وهو يمشي نحو البساط الذي كانت هي جالسة عليه : «ان سروري تم بلقياك أيتها الشاعرة البارعة . وقد كنت اعجب لما اسمعه من شغف توبة بك».

فلما سمعت ليلى اسم توبة علا وجهها الاحمرار وكأنها خجلت وطأطأت رأسها حياء، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «وهل سمعت شيئا من قوله ؟».

قال : «سمعت كثيرا ، ولكنني أذكر هذه الأبيات فقط :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت	عليَّ ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة ، أو رقا	اليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله	الا كل ما قرت به العين صالح

ولم يتم كلامه حتى اصفر وجه ليلى . وأدركت عزة ذلك فيها فأحبت الترفيه عنها فدعتها الى الطعام والغسل، فشكرتها وذكرت انها لا تحتاج الى شيء من ذلك ، وانما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف.

فقالت عزة : «لعلك قادمة من الشام ؟» .

قالت : «نعم وقد وصلت الى المدينة الساعة ، وكان معي رفيق خليته في مكان وجئت اليك على أن أعود اليه عاجلا» .

فتذكرت عزة الأشباح التي رأتها وسمية على شاطىء تلك البحيرة فقالت : «أظنني رأيت أشباحكم عند الغروب بين النخيل» .

قالت : «كنا ثلاثة وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جمالنا» .



حكاية ليلى مع توبة

فأيقنت عزة أنها هي التي كانت مع الركب، وقالت تداعبها : «أتحبين توبة ؟».

فقالت ليلى : «ماذا تعنين ؟».

قالت : «أعرف انك تحبين توبة ، وأسمع انه شاب جميل شجاع ، وانه يحبك. فكيف تزوج غيرك وتزوجت انت غيره ؟».

فقالت ليلى وقد زاد احمرار وجهها : «دعينا يا عزة من هذا الحديث ، وأسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق».

فلم تشأ عزة ان تلح عليها ، ولكنها عمدت الى الحيلة فقالت : «صدقت ان الذكرى تؤلم». ثم التفتت الى طويس وقالت : «هات الدف».

فناولها طويس دفا فنقرت عليه وغنت :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها
عليّ دماء البدن ان كان بعلها يرى لي ذنبا غير أني أزورها

ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونها وقالت : «ما هذا يا عزة ؟ أراك تلحين لتعلمي سبب فراقي توبة».

فضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول : «وما لهذا الشعر ولك ؟ هل توبة قاله فيك ؟».

قالت : «أتتجاهلين ؟ ما دمت مصرة على سماع حديثي مع توبة فسأقصه عليك وان كان ذكره يؤلمني . اعلمي يا أخية ان عاداتنا نحن معاشر البدو غير عاذات الحضر أهل المدن أمثالكم . فان الرجل منكم اذا أحب فتاة تزوجها . وأحسن الزواج ما يكون على حب. وأما نحن فاذا عرف أهل الفتاة أن شابا يحبها وتحبه منعوه منها، وهذا ما وقع لي مع توبة فانه كان يحبني ويقول في الشعر، فلما خطبني الى أبي، رفض ان يزوجني به، وزوجني برجل من بني الادلع هو زوجي الى الآن، ولم يكتفوا بذلك ولكنهم أهدروا دم توبة ومكنوا له في الموضع الذي يلقاني فيه حتى اذا جاءني هموا بقتله . وكنت اذا جاءني قبل ذلك تبرقعت واحتجبت منه

على عادتنا . ففكرت في حيلة أحذره بها غدرهم بحيث لا يشعرون، فلم أر خيرا من أن أغير عادتي معه فلما جاءني في ذلك اليوم خرجت اليه سافرة وجلست في طريقه . فلما رآني على تلك الحال فطن لما أردت وركض فرسه فنجا ثم نظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

نأتك بليلى دارها لا تزورها   وشطت نواها واستمر مريرها

«ومنها البيتان اللذان غنيتهما . وهي طويلة».

■

وكانت عزة قد سمعت القصة من قبل ، ولكنها أرادت ان يسمعها طويس . فلما فرغت ليلى من حديثها قالت عزة : «اني لم أكن أجهل حديثك هذا ولا غيره، ولولا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما تعرفيني بنفسك . فبالله الا ذكرت لي سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على أنفة وعفة تندران في المدن».

قالت: «صدقت، ان العفة والحب النقي إنما يكونان في أهل البادية، وبنو عذرة أهل وادي القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما ولكن ذلك غير مقصور عليهم وان كان غالبا فيهم . وقد قلت ان توبة كان يحبني وأحبه ولم أسمع منه ما يدعو الى ريبة، ولكني اجتمعت به مرة بعد ان تزوجت وتزوج، فقال لي كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

«فلم أعد اسمع منه ريبة قط».

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقي ثم قال : «ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثي المدينة، والله ان البداوة حلوة ولكني لا أحبها !».

فقالت له ليلى : «اذا شاقك ذلك فعليك بوادي القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الأمثال ، وفيهم جميل بثينة، وكثير عزة وغيرهما».

فضحكت عزة ، ورأت الرجوع الى الغناء، فأخذت فيه وهي تنقر الدف، فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت بالدف عودا عزفت عليه وغنت ألحانا شجية، وكانت ليلى في أثناء الغناء تطرق وتستغرق في التأمل ، كأنها تفكر في أمر ذي بال، فلما رأت عزة فرغت من غنائها قالت لها : « لقد أطربتنا يا عزة بغنائك وعندي أمر أحب ان أسره اليك فهل تسمحين بخلوة ؟».

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا وأغلق الباب وراءه.

واقتربت ليلى من عزة حتى جلست بجانبها وقالت بصوت يقرب ان يكون همسا : «أتعرفين رملة بنت الزبير ؟».

قالت عزة : «كيف لا أعرفها وهي أخت عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرمين وهو محصور في الكعبة الآن».

قالت : «محصور ؟ ومن حصره؟ ».

قالت عزة : «انه أقام بالحرمين يدعو الناس الى البيعة له منذ توفي معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو أمره الا بعد مقتل الحسين وموت يزيد، وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك - بن مروان خليفة بني أمية بدمشق ».

قالت ليلى : «أعلم ذلك ، وأعلم أيضا ان أهل الحجاز بايعوه ، وأن الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم».

قالت : «ألم تسمعي بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي من الحجاز بأمر عبد الملك لقتال عبد الله في مكة ؟».

قالتُ : «أظنني سمعت شيئا من ذلك قبل خروجي من الشام».

قالت عزة : « وقد جاء الحجاج، ولعلك سمعت بشدة بطشه واستبداده، وقد حاصر عبد الله بن الزبير في مكة وضيق عليه ، حتى خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الآن من قبل عبد الملك بن مروان».

فأطرقت ليلى وصمتت وكأن خاطرا طرأ عليها فأرجعها عما كانت تهم به، فأدركت عزة ذلك فقالت لها : «مالي أراك صامتة . . . ؟ قولي ما في نفسك».

قالت : «جئت المدينة في مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن حال أخيها يحول دون بلوغ الغرض من السؤال . هل هي معه في مكة ؟».

قالت : «نعم هي معه هناك، وأظنهم في أشد الضيق من الحصار، وقد قل زادهم ولا ندري ما يؤول اليه أمرهم».

فتأففت ليلى وتذمرت ثم جعلت تحك ما وراء اذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس في نقوشه وهي لا تتكلم».

فقالت عزة : «قولي يا أخية ما في نفسك فقد أقلقت خاطري بسكوتك، ما الذي تريدينه من رملة وأخيها ؟».

قالت : «لا أخفي عليك ان أميرا كبيرا من أكبر أمراء بني أمية ، انتدبني للبحث عن رملة واستطلاع أحوالها ، لأنه يريد خطبتها ، فلم أجد من يصف لي جمالها سواك لأنك

عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟».

قالت : «على الخبير وقعت . أما رملة فانها من أحسن النساء خلقا وعقلا ودراية . ولكنني أعجب لاقدام أمير من بني أمية على خطبتها والحرب قائمة بين الامويين وأخيها».

فأمسكت ليلى عن الكلام قليلا ثم قالت : «أخشى أن أصرح بالاسماء فأكون قد بحت بسر اؤتمنت عليه».

قالت : «لا تخافي فاني مستودع أسرار أهل المدينة . واني أعاهدك على كتمان ما تقولينه».

قالت : «ان الأمير الذي يبغي خطبتها احسن امراء بني أمية علما وأدبا وشعرا وفصاحة وعارضة، وله ولع خاص بعلم الكيمياء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة».

فقطعت عزة كلامها قائلة : «قد عرفته ، انه خالد بن يزيد . أليس هو ؟».

قالت : «هو بعينه فما قولك ؟».

فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : «قد أدركت سر الامر ، وعلمت السبب الذي سوغ لخالد خطبة رملة وهي من أعداء بني أمية وان كان هو أمويا ».

قالت : «أما وقد فهمت سر الأمر فاكتميه عن كل أحد . وهذه هدية من خالد بعث بها اليك». قالت ذلك ومدت يدها الى كمها وأخرجت عقداً من اللؤلؤ دفعته إليها فتناولته عزة وأثنت على فضلها وقالت: «هل عزمت على خطبة رملة لخالد، ومن يخطبها له؟.

قالت : «ليس لي أن أصرح بأكثر مما قلت».

فقالت عزة : «ما السر عندي الا في بئر عميقة ، فطيبي نفسا وقري عينا».

ثم تحفزت ليلى للقيام فأمسكتها عزة ودعتها الى البقاء عندها . فاعتذرت بأن هناك من ينتظرها في الخارج، ولا بد لها من موافاته لأمر لا يحسن تأجيله . ثم خرجت ، فمرت على طويس في البستان فودعته قبل انصرافها .

■

كانت ليلى الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم، وكانت تفد على الملوك والأمراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجوائز. وكانت قد وفدت على عبدالملك بن مروان في ذلك العام فامتدحته، ثم سارت الى خالد فعهد اليها في البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن كان في جملة من جاء الشام مع عبد الملك بن مروان عند عودته من العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير واخراج العراق من سلطة أخيه..

وكان حسن من رجال مصعب الداعين الى بيعة أخيه في العراق وحارب معه في قتاله المختار بن عبيد الثقفي فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع حسن عنه جهده حتى قتل ووقع هو في أسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقي هناك خالدا فأحبه هذا وجعله من بطانته . وكان يثق به ويبوح له بما في نفسه على عبد الملك لأنه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لأنه ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين امه وأم عبد الملك حكاية سيأتي ذكرها.

وكان خالد قد سمع بزملة بنت الزبير، وأراد خطبتها . فلما جاءته ليلى سألها عنها فذكرت له أنها لم ترها ، فكلفها أن تستفهم عنها عزة الميلاء في المدينة ، وكتب الى أخيها عبدالله بن الزبير يخطبها منه ، وسلم الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلى وأوصاه اذا أمرته ليلى بالذهاب الى مكة ان يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبذل جهده في اقناعه ، وكان حسن يحبُّ خالدا حبا شديدا فعزم على ان يبذل ما في وسعه لتنفيذ مرامه ، وكان له في المدينة وطر يحن الى قضائه فأسرع مع ليلى حتى وصلا الى المدينة مساء ذلك اليوم ، فعرج هو الى منزل يمكث فيه ريثما تعود ليلى .

أما ليلى فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم ان يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين، على أن توافيه الى هناك . وسارت لمقابلة حسن في الملتقى . فلقيته في انتظارها على مثل الجمر فأخبرته بما دار بينها وبين عزة وأوعزت اليه ان يسافر الى مكة في المهمة التي جاء من أجلها ودعت له بالتوفيق . . .

حسن وسمية

ولما خلا حسن الى نفسه، عاوده ما كان يتقد في قلبه من الوجد. وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها وأباها من الموت في العراق في أثناء القتال ضد المختار بن عبيد، وقد تعاهدا على الزواج ، وهو يعلم انها تقيم بالمدينة ولكنه لم يكن يعرف منزلها، فرأى ان يسأل عزة في أمرها بوصفها أخبر أهل المدينة بنسائها . فسار توا الى عزة وكانت لا تزال جالسة وقد خرج طويس من عندها .

وكان حسن طويل القامة، حسن الخلقة، في وجهه دلائل المروءة وصدق المودة، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما أقبل على عزة استقبلته باشة. وكانت قد تعودت كثرة الوافدين عليها من سائر البلاد. على انها استغربت قدومه اليها في آخر الليل.

واعتذر حسن عن ذلك فقال : «أني قادم اليك في أمر أقلقني وحرمني المنام وليس لي من يفرج كربي سواك».

قالت : «قل ما بدا لك».

قال : «اني أحب فتاة من أهل المدينة ولكنني لا أعرف منزلها ولا ادري امقيمة هي هنا أم سافرت الى بلد آخر ؟».

قالت : «ما اسمها ؟».

قال : «اسمها سمية بنت عرفجة الثقفي».

فبهتت عزة عند سماعها الاسم ، وجعلت تتفرس في وجهه كأنها تستطلع حقيقته، ثم قالت : «من أين عرفتها وكيف أحببتها وأنت بعيد عن المدينة ؟».

قال : «قولي لي أولا اهي في المدينة ؟ وهل تعرفينها جيدا ؟».

قالت : «أعرفها كما أعرف نفسي، وهي مقيمة هنا وكانت عندي هذا المساء، فقل لي أين وكيف عرفتها ؟».

قال : «كنت من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لقتال المختار بن عبيد الثقفي . وكان المختار بعد قتل الحسين قد قام يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم الآن. فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمعونة التوابين وهم

أهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته فلما قتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه».

قالت : «نعم اذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه ، وليس لعبد الله بن الزبير».

قال : «انه كان يدعو الى البيعة لعبد الله أول الامر ، فلما فاز في حروبه طمع في الخلافة لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية. ولا أشك في ان محمدا لم يكلفه بذلك لأنه زعم أشياء لا يرضى بها محمد».

قالت : «أظنك تعني الكرسي الذي زعم انه كرسي علي ، وصار يحمله معه في حربه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه».

قال : «نعم ، ولكنه لم يفلح لأن عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله أرسل أخاه مصعبا في جند كبير فقتلوه وسمروا يده في مسجد الكوفة ، وكنت انا في جملة رجال مصعب. ففي يوم المعركة بعد ان تم لنا النصر وأمعنا في رجال المختار قتلا ونهبا . لقيت عرفجة أبا سمية طريحا على الارض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها ، فتحرك قلبي نحوها تحركا غريبا ، وسمعتها تستنجدني لانقاذ أبيها من القتل ، فصحت في الرجال فأبعدتهم عنه وأوصلته الى مأمنه فقبل يدي وشكرني ذاكرا انه لا يقدر على مكافأتي. فقلت له : (لا ألتمس مكافأة منك الا ان تزوجني ابنتك هذه). فقال : (هي جاريتك بين يديك). فتواعدنا على ان آتي المدينة وأتزوجها. وأتممت أمر انقاذه فأخرجتها من الكوفة وبعثت معها من أوصلها الى هنا ، وبقيت انا هناك وشغلت بأمور كثيرة لا محل لذكرها فلم استطع المجيء الا اليوم».

■

كان حسن يتكلم وعزة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث . فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة : «لعلك حسن ؟».

فبهت وقال : «نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟».

قالت : «عرفته منها ، واني أهنئك بسمية فانها زينة فتيات المدينة وليس أحد يعرف مكنون قلبها غيري . وقد طالما ذكرت اسمك لي . وأطلعتني على خصالك وأثنت على مروءتك. فثق بأنها ما زالت على ودك ، ولو انك جئتنا قبل ساعة لوجدتها هنا».

قال : «وهل من سبيل الى رؤيتها ولك علي ما يرضيك ؟». فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : «لم يكن أهون من ذلك علي لولا ان اباها ضنين بها ، لا يأذن في خروجها من البيت ، الا نادرا ، وهي انما تجيئني خلسة في أكثر الاحيان. ولا شك في انه اذا عرف انها جاءتني لمثل ما

تريده أنت فانه يغضب وربما أساءها وأساءني ، ولاسيما انه ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة ، ففي استطاعته ان يتهمني عنده بما ينغص علي عيشي».

فلبث حسن مدة يفكر في أمره، وقد اقتنع بالمشقة التي تحول دون مجيء سمية ، لكنه ما لبث لعظم شوقه ان استسهل كل عسير، ورأى ان يصبر الى صباح الغد ثم يذهب لزيارة ابي سمية . فنهض مودعا عزة بعد ان استدل منها على بيت عرفجة ، فدلته عليه وودعته معتذرة من عدم استطاعتها اجابة رغبته في رؤية سمية .

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر، ثم أفاق قبل الفجر وأخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبه وهو يفكر في لقياها ، وشق عليه انه لا يستطيع مخاطبتها أمام أبيها لكي يبثها شوقه وهيامه، فعلل نفسه بما قد يأتي به القدر من سوانح الفرص

وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل ، والناس يذهبون ويجيئون في الطرق وهو لاه عنهم بما قام في خاطره من أمر اللقاء المنتظر بعد الغياب الطويل.

وكان بيت عرفجة بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ، وهو أضيق مساحة وأقل فخامة ، فلما وصل الى بابه رآه مفتوحا فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف، وفي بعض جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء أحمر زاه وليس على رأسها نقاب، وقد جلست أمام النخلة وأسندت ظهرها اليها ووجهها إلى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل. ومع انه أدرك انها سمية . فندم على دخوله بغتة واستنكف أن ينظر اليها او يدخل بلا استئذان . ولكن الشوق أعمى بصيرته فوقف مبهوتا وقلبه يخفق ، والشوق يدفعه الى رؤيتها، والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب . .

ثم غلب عليه الحياء وخاف ان يقع نظرها عليه فتخجل وربما أصابها سوء من تأثير البغتة ،

فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد كانت معلقة في خوخته ولبث ينتظر من يدعوه الى الدخول او من يأتي لاستقباله . ثم سمع وقع اقدام في الباحة فعلم ان سمية تمشي الى احدى الغرف للاستتار. وظل واقفا مدة فلم يأته أحد فأعاد القرع مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع أقدام قادمة نحو الباب عرف من شدتها وسرعتها انها أقدام رجل. ثم جاءه رجل في نحو الخمسين من عمره قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه ، وهو أشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وعلى كتفيه مطرف التف به ، وكأن خديه حفرتان ، ووجنتيه أكمتان، وأنفه كتلة بارزة في منتصف وجهه. وله عينان غائرتان. ولو قد تفرس فيه حسن لتبين من اختلاج أجفانه وعدم استقرار نظره انه من أهل الرياء والخبث.

فلما وقع نظر حسن على الرجل عرف انه عرفجة أبو خطيبته، فهش له وهو يتوقع ان يعرفه ويرحب به . أما عرفجة فلبث برهة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله . فضحك حسن

وتقدم وألقى التحية، فرد عرفجة التحية دون ان يبدو على وجهه ما يدل على انه عرفه، ثم سعل كأنه ينبه أهل بيته الى قادم غريب ، فقال له حسن : «أظنك لم تعرفني يا عماه ؟» .

فلما سمع عرفجة كلامه تكلف الابتسام وألقى نفسه عليه وجعل يقبله ويرحب به ويقول : «أهلا بك يا بني، انت حسن ؟ . من أين أتيت ؟». وأمسكه بيده ودخل به الى الدار وسار توا الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين . فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد ان كاد يتميز غيظا مخافة ان يعود من سفرته بخفي حنين. وابتدره عرفجة بالسؤ ال عن حاله وعن سبب غيابه ، وسأله اذا كان في حاجة الى طعام. فاعتذر شاكرا، وأخبره بأنه قدم المدينة للقياه

فجعل عرفجة يتملقه بالكلام اللطيف ليستطلع ما في قلبه . فاطمأن اليه حسن وأطلعه على شدة شوقه الى سمية . وكان يخاطبه ويراقب ما يبدو منه من استحسان أو استهجان . فلم يجد إلا انعطافا وترحابا. وعلم منه ان سمية في خير، وانها ما زالت تذكر فضله عليهما، فازداد حسن استئناسا وتوقع منه أن يدعو سمية لتراه، فلما لم يدعها ظنه أجل ذلك الى ما بعد الاستراحة. واستغرقا في الحديث في شؤ ون مختلفة حتى ذكر حسن انه جاء المدينة في مهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير بمكة. ثم قال: «ألم يئن لي ان أبلغ أمنيتي التي منيت نفسي بها منذ أعوام؟».

فتجاهل عرفجة وقال : «وما هي يا بني ؟».

قال : «الزواج من سمية . . . خطيبتي».

قال : «هي جاريتك وطوع ارادتك، ولكنك ذاهب الى مكة كما تقول ، فيحسن ارجاء الامر حتى تعود، ولا سيما ان سمية ليست هنا الآن ، وسأخبرها بقدومك متى عادت ، ولا أشك انها ستسر بلقياك، فاذهب الآن في مهمتك، ومتى عدت نعقد قرانكما باذن الله».

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية في المنزل ، ولكنه التمس له عذرا وشكر الله على انه رآها خلسة . على انه كان يتوقع وهو يخاطب عرفجة ان يسمع خطوات سمية او يلمح طرف ثوبها وهي مارة او يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجواري يخطرن في الدار لقضاء بعض حاجات المنزل.

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام فقال : «متى تعتزم المسير الى مكة يا بني ؟».

قال : «في القريب العاجل وربما خرجت الليلة».

قال : «وهذا ما أراه ، فان سرعة ذهابك يقرب يوم زواجك فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك».

فسر حسن بما سمع ولم يفقه ما كان يبدو في عيني عرفجة وفي حركاته من دلائل الخبث .

والغدر ـ ولم يكن ذلك سذاجة فيه ولكنه كان سليم القلب صادق النية كبير النفس، يعتقد ان الناس كلهم مثله ـ هذا الى ان عرفجة كان مدينا له بانقاذه من القتل، وقد رحب بمصاهرته أولا وآخرا. وهكذا اقتنع بما سمع منه فقال: «أرى ان أخرج من المدينة الليلة».

قال: «وهل تعرف الطريق؟ ومن أي باب تخرج؟».

قال: «نعم يا مولاي اني خارج من الباب المطل على قباء».

قال: «اجعل خروجك عند الغروب من الباب المؤدي الى مكة، فانه اسهل مسلكا، ولكنني أخاف عليك من برد الليل فهل احتطت لذلك؟».

قال: «عندي عباءة التف بها اذا برد الليل».

قال وهو يبتسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه: «لا أرى ان تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة، ومن كان مثلك من ذوي الوجاهة لا يليق ان يمر في الاسواق ملتفا بعباءة، فاسمح لي ان أقدم لك قباء يليق بمقامك». قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال: «هات القباء الاخضر المعلق في الحجرة».

فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف، فتناوله عرفجة ودفعه الى حسن وقال له: «اليك هذا القباء فالبسه وأنت خارج على ناقتك في هذا المساء فانه اوقى لك من البرد».

فتناول حسن القباء شاكرا، مع انه لا يرى حاجة اليه، اذ لم ير من اللياقة ان يرده. وازداد ثقة في عرفجة وحسن قصده. ولحظ في حركاته ميلا الى فض الاجتماع، فنهض وقبل يده مودعا، وخرج وقلبه ما زال في تلك الدار، وقد شق عليه ان يخرج منها دون ان يخاطب حبيبته. ولكنه علل نفسه باللقاء القريب بعد رجوعه من مكة، وسار توا الى السوق ليبتاع بعض النبال استعدادا لعاديات الطريق. ولكنه لم يكن يعرف اين يبيعون النبال فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلتقط نوى التمر ويضعه فيها، وهي احقر مهن اهل المدينة، فناداه حسن وسأله: «ألا تعرف رجلا يبري النبال قريبا من هنا؟».

قال: «أعرف كثيرين، هل تريد النبال المريشة أو التي بلا ريش؟».

قال: «اني أفضل المريش منها».

قال: «تعال معي فأدلك على أحسن من يبريها في هذه المدينة».

■

سار حسن في أثر الغلام حتى انتهى به الى الطرف الآخر من المدينة، ووقف به عند حانوت أمامه دكة، وفي صدر الحانوت رجل من أهل يثرب بين يديه القسي والنبال، وفيها المبرى بعضها من الخشب والبعض الآخر من القنا ونحوه. فدفع الى الغلام درهما وصرفه،

ودخل الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه انه من أهل الشام فرحب به وأجلسه على الدكة. فجلس حسن ووضع القباء بجانبه وأخذ يقلب السهام، وفيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الايمن او الايسر. وجعل ينتقي ما يريده منها ثم قال للرجل : «هل اجد عندك جعبة للنبال ؟».

قال : «كلا يا مولاي ، اني لا أصنع الا النبال ، ولكن جاري جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد أو من الخشب على أشكال مختلفة فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها».

فقال : «اذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال». . ثم انتقى ما احتاج اليه منها ودفع الثمن، وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد نسى القباء عند النبال، وسار والنبال يسير امامه حتى أوصله الى حانوت واسع فيه جلود وأخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت . فرأى الجعاب يخاطب شابا يظهر من لباسه انه من أهل الوجاهة وهو يساومه على جعبة أراد ابتياعها، فوقف حسن ينتظر الانتهاء من تلك الصفقة، وقد استأنس برؤ ية ذلك الشاب وتذكر انه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه، وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن فلما وقع بصره عليه بغت وتفرس في سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح : «حسن ؟ ».

قال : «نعم ، وأنت . . سليمان ؟».

وتعانقا ، ثم جلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيا الجعاب وصاحبها ، فقال سليمان : «من أين انت قادم يا أخي ، ومتى قدمت ؟».

قال : «اني قادم من دمشق وقد وصلت الى المدينة مساء أمس».

قال : «وهل تنوي الاقامة هنا ؟».

قال : «كلا، اني عازم على السفر الليلة».

قال «لا . لا . اني مشتاق الى رؤ يتك، وقد مضى علي بضع سنوات وأنا أفكر فيك .أتذكر أياما قضيناها في الكوفة معا، وقد كانت أياما سعيدة رغم ما شهدناه فيها من القتال».

قال حسن : «لا ريب انها كانت سعيدة لكم لانكم فزتم بالامر الذي قمتم له وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة . أظنك لم تنس عبيد الله بن زياد وهو مضرج بدمه في ساحة الحرب».

قال : «وهل اقدر على نسيان ذلك، اني أتذكره كلما شممت رائحة المسك، لاني حين شهدت جثة عبيد الله في الوقعة شممت رائحة المسك قوية، اذ كان كثير التضمخ بالمسك. ولكنني لم أفرح بمقتل ابن زياد فرحى بمقتل ذلك الابرص الذي قطع رأس الحسين بيده».

قال حسن : «أظنك تعني شمر بن ذي الجوشن قبحه الله ؟». قال : «اياه أعني . . فقد

رأيت هذا الخبيث في معركة اخرى مقتولا وعليه بردة، وقد عرفته من بياض برصه ».
فقال حسن : «انها لذكرى خسنة ، ولكننا لا نستطيع الخوض في هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق».
قال سليمان : «هلم الى مكان لنقضي فيه هذا اليوم ، فاني أحسبه من أسعد أيامي ، لانه يذكرني بأيام النصر وان كنا الآن في».. وقطع كلامه لئلا يسمعه احد .
ثم نهضنا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل بصديقه عن تذكر القباء وهو لم يتعود حمله.

■

كان سليمان هذا صديقا لحسن تعارفا منذ الصبا. وكان مقيما مع ابيه بالكوفة مع دعاة الحسين. فلما قدم الحسين الكوفة في أهله كان هو وأبوه من الذين تخلفوا عن نصرته . ولما قتل الحسين في سهل كربلاء وقتل أهله معه أصبح سليمان وأبوه من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن نصرة الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه، فلما جاء المختار بن أبي عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير، انضم التوابون اليه فقتلوا قتلة الحسين. ثم طمع المختار في الامر وأرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبالمحاربتهم وكان حسن مع مصعب فلما غلب مصعب المختار وقتله تفرقت رجاله، فانحاز بعضهم الى مصعب ومنهم سليمان وأبوه، وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان . وكان سليمان يعجب بأخلاق حسن . فلما جاء عبد الملك ابن مروان وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله، سار حسن مع عبد الملك، وجاء سليمان وأبوه الى المدينة فأقاما بها.

فلما تلاقيا بالمدينة على هذه الصورة انس به سليمان وأحب البقاء معه . فدعاه الى منزله وقال له : «ان ابي يسر بلقياك ». فتذكر حسن ابا سليمان فقال : «فاتني أن أسأل عن أبيك كيف هو وما الذي يعمله الآن ؟».
قال : «انه في خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك بن مروان».
قال : «وهل هو يخدمه عن رضى ؟».
قال : «أراه راضيا بخدمته، وكثيرا ما أظهرت عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا الحسين. وكنا بالأمس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين، ولكنني رأيته راضيا فسكت عنه. ولعل له عذرا».
وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان، ولم يكن أبوه في البيت فمكثا

هناك وتناولا الغداء معا وقد سر كل منهما بلقاء صديقه، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهاب لوداع ليلى الاخيلية في بيت سكينة بنت الحسين ، وهو انما كان يرجو ان يستطيع مشاهدة سمية لأن بيتها بجانب بيت سكينة.

فألح عليه سليمان أن يؤجل سفره الى الغد، ولكنه اعتذر شاكرا، فقال سليمان : «اذا لم يكن بد من سفرك فاني ارافقك في اوائل الطريق لأنك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله. فاذا رضيت برفقتي فاني أصاحبك الى العقيق فنمكث هناك ساعة أتملى من حديثك ثم نفترق».

قال حسن : «كيف لا أرضى بذلك وفيه راحتي وحسن حظي».

قال : «أين نلتقي ؟».

قال حسن : «نلتقي بباب المدينة المؤدي الى مكة ونخرج من هناك معا .

قال : «وهل تعرف الطريق الى الباب؟».

قال : «نعم اعرفه فانه على مقربة من حانوت النبال الذي اشتريت هذه النبال منه اليوم».

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال : «لقد نسيت عنده القباء ، وأخاف اذا أردت الذهاب اليه أن تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى».

فابتدره سليمان قائلا : «دع هذا لي، فأنا أمر بالنبال وآخذ القباءمنه وأحفظه لك الى الملتقى».

فشكره حسن وودعه ، وخرجا فسار كل في طريقه.

■

وكانت سمية جالسة في ساحة بيتها حين قرع حسن الباب، فدق قلبها وحدثتها نفسها بأن الطارق حبيبها، ثم استبعدت ذلك ، فعاودها الحزن ، ونهضت لكي تحتجب عن الطارق فانزوت في أقرب غرفة الى الباب وفي نفسها ميل الى معرفة الطارق، لان طريقة دقة الباب لم تكن تشبه دقات زوارهم المعروفين. وكثيرا ما تدل الدقة على صاحبها ويعلم أهل البيت من هو صديقهم من قرعة الباب. هذا الى ان عرفجة كان من أكثر الآباء تضييقا على بناتهم في أمر الحجاب . فكان ذلك يدعو سمية الى التطلع الى القادمين من شقوق النوافذ أو ثقوب الأبواب.

واتفق في ذلك الصباح انه لم يكن في البيت أحد من الرجال غير عرفجة وكان مشغولا في حجرة خاصة لا يدخلها احد غيره، وفيها محفة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه. فاذا دخل تلك الحجرة اقفل بابها ولا يدري اهل البيت ماذا يفعل هناك. فيقضي فيها ساعة او بعض

الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه. وكثيرا ما أحبت سمية استطلاع امر تلك المحفة ومشاهدة ما في داخلها فلم توفق الى ذلك . لأن المحفة من خشب متين لا منافذ للبصر فيه. فلما قرع حسن الباب كان عرفجة هناك فأبطأ في فتح الباب كما تقدم . ثم سمعته بعد ان فتحه وهو يخاطب حسنا ويرحب به، وكانت تنظر من ثقب في باب غرفتها يطل على حجرة أبيها فوقع بصرها على حسن وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة، وهي أول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ، فلم تكد تتحققه حتى شعرت بهزة قوية وخفق قلبها خفوقا شديدا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيه جيدا فاذا هو حسن بعينه، ورأت أباها يخاطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشاراته وملامحه لأنها لم تكن تفهم الكلام لبعد المسافة، ثم دخلا واقفلا الباب. فأرسلت جارية لها تتسمع حديثهما وتعود اليها بما سمعته. والجواري أكثر الناس رغبة في نقل الاحاديث وبخاصة اذا كانت من هذا القبيل . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان أو الباحة فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها وتعود الى سمية به. فأطلعت سمية بذلك على ما دار بينهما حرفيا. وساءها رفض أبيها ان يجمعها بحسن ولو من وراء حجاب، ولكنها سرت برؤيته واطمأنت الى انه ما زال على حبها. ولما أخبرتها الجارية انه جاء يطلبها من أبيها زاد اضطرابها واصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها على شق الباب. على انها ما لبثت ان علمت أنه غير الحديث واعتزم الخروج من المدينة في تلك الليلة. وان أباها حبب اليه الاسراع في ذلك وأعطاه القباء . فاستغربت اعطاءه إياه . مع ما تعلم من بخله. على ان ذلك أكد لها رضاءه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة.

فلما خرج حسن وتبعه عرفجة لوداعه ، طارت عيناها شعاعا الى حسن، ولكنه ما لبث ان غاب عن مدى بصرها من ذلك الثقب . فلما رأت أباها راجعا خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب في وجهها. فلما رآها عرفجة في تلك الحال انقبضت نفسه وتظاهر بأنه في شاغل عن الحديث معها.

ولكنها لم تصبر على استطلاع أفكاره وأمسكت عن الكلام تهيبا لانها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه وقد قاست منه الامور الصعاب ، على انها كانت تحسن الظن به فتحولت الى حجرتها وهي منقبضة النفس ودخل عرفجة حجرة اخرى وقد لحظ ما في نفس ابنته ولم يفته اطلاعها على ما دار بينه وبين حسن. فبعث اليها فجاءت وليس في المكان سواهما فوقفت وقلبها يخفق وهي لا تستطيع التطلع الى ابيها ولا تدري ما يريد منها . فأشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منه وهي تتشاغل بمداعبة اطراف جدائلها المرسلة. وكانت تضفر شعرها

عادة في طرة ا شتهرت في المدينة يومئذ بالطرة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من ضفرها على تلك الصورة .

لبثت سمية برهة هكذا، وأبوها ينظر اليها ويتأمل في حركاتها فلم يزدد الا وثوقا بتعلقها بذلك الشاب وهو لا يحب ان يتقرب منه، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صراحة . على انه كثيرا ما حاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل . وكان قد ظن حسنا مات او قتل لغيابه عن المدينة ، أو عدل عنها واشتغل بغيرها . فلما رآه في ذلك الصباح وتحقق انه ما زال حيا بغت واستعاذ بالله، ولكنه عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه وأظهر له ما أظهره من اللطف والانس على أمل ان يفتك به غيلة . فلما رأى اضطراب سمية قال لها : «أراك مضطربة ، فما الذي دعاك الى هذا ؟».

قالت وهي لاتزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره : «وأي اضطراب تعني؟» .

قال : « أعني ما يبدو في وجهك من الاحمرار على أثر الاصفرار وكأني أسمع دقات قلبك. فما هذا ؟» . قال ذلك بنغمة رقيقة رفقا بها واحتيالا في استطلاع سرها، وقد كان يحب رضاءها ولكنه لا يريد ان تعمل عملا تستقل به عنه. وكان أهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها ، وكان هو يريد ان يتجر بذلك الجمال فيزوجها بحاكم أو أمير فيكتسب بزواجها منصبا او مالا . وكانت له مطالب أخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس اذ ليس في البشر من لا يحب ذاته ويؤثرها على غيره من الناس، اما اذا صحبه خبث النية وسوء الخلق فانه يكون وبالا على الناس، لأن صاحبه لا يبالي ما قد يضحيه من الانفس أو الاعراض في سبيل نيل أغراضه .

وكان عرفجة ذا مطامع لا حد لها وكان ذلك شأن كثيرين في ذلك العهد على أثر تزعزع أركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك، وذاك يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية، وآخر الى بيعة عبد الله بن الزبير، فضلا عن دعاة آخرين في البلاد الاخرى . فأصبح الامر فوضى وربما خطر لعرفجة ان يدعو الى احد هؤلاء أو غيرهم ، ولو أتيح له ان يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع في ذلك وهو من ثقيف وهم غير اكفاء للقرشيين. وكان الحجاج والمختار بن أبي عبيد ثقفيين أيضا ، فلما أراد المختار ان يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا.

■

لما سمعت سمية سؤال أبيها ولم تر فيه نغمة الجفاء أجابت وهي تكاد تذوب خجلا : «أتسألني يا سيدي عما أنت أعلم الناس به ؟».

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : «أظنك تحبين هذا الشاب ؟».

قالت : «لا أقول اني أحبه ولكنني أعلم فضله علينا لأنه أنقذنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به أفلا نفي بالوعد ؟».

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهي تنتظر في وجه أبيها متوقعة أن يكون جوابه الاذعان الصريح . ولكنها رأته ابتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه، وأخذ يلاعب طرف لحيته بأنامله وهو يقول : «ما شاء الله ! وأي فضل تعنين يا سمية ؟».

قالت : «ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن في الكوفة . ألم أخرج اليه محلولة الشعر وأطلب نجاتك فأسرع لانقاذك ؟ . ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن». قالت ذلك وهي تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان الشر في عينيه وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الأرض من شدة الغيظ وقال: «لا أقدر على سماع هذا الكلام . ان الذي يدعي علينا مثل هذا الفضل يجب ان يموت».

فلما سمعت سمية كلامه اقشعر بدنها وامتقع لونها، ونظرت الى أبيها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه ولا تصدق انه يعني ما يقول . ولكنها ما لبثت أن رأته نهض وجعل يتمشى في أرض الحجرة ولحيته ترقص امام عنقه وعيناه محملقتان وأنامله ترتجف . فتهيبت وأطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وبقيت هادئة لا تحرك ساكنا ولسان حالها يقول : «ويلك يا ظالم».

أما هو فبعد ان تمشى هنيهة عاد فوقف أمامها وقال لها :«لو كنت تحبين أباك. ما رضيت أن يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا. كيف نَعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ وتقولين ذلك جهارا ؟. لا شك انك تحبينه أكثر مما تحبينني ؟».

فقالت والبكاء يخنق صوتها : «كيف تقول ذلك يا أبتاه ، وأنت تعلم قلبي وتعلم اني لا أحب أحدا سواك. وأما هذا الشاب فان له علينا فضلا لا ينكر- هل نسيت الخطر الذي كنا فيه وكيف انقذنا وعني بارسالنا الى هنا ؟. ثم انك انت الذي وعدته بي، فاذا كنت أحبه فانما انت الذي دعوتني الى ذلك و . . .».

فقطع عرفجة كلامها وقال : «أبلغت بك القحة الى أن تقولي لي انك تحبينه وتعيدي ذكر جميله . ان ذكر هذا الجميل وحده يدعو الى قتله ! ».

فاضطربت سمية ، وجثت عند قدمي أبيها والدمع يتساقط من خدَيها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها وقالت : «رحماك يا سيدي ، بالله لا تذكر القتل . دعه لا تقتله ولا تزوجني به . . فأنا لا أخرج عن طاعتك في أمر من الامور. لا تذكر القتل لانه يقطع قلبي . افعل بي ما تشاء فاني طوع لك. اشفق علي وارحمني».

فلما سمع تذللها ظنها ارعوت عن محبة حسن، فأمسكها وانهضها ومسح دموعها وقال لها : «خففي عنك يا بنية وكوني حكيمة عاقلة ، وانبذي أمر هذا الغلام وارجعي الى أبيك، واعلمي اني لا أفعل الا ما فيه سعادتك».

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فاتكأت على صدره فتحقق انها اذعنت لأمره واستسلمت له، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : «يظهر انك كنت في جهالة عمياء . والحمد لله على انك أدركت ما أنويه لك. كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على أبيك ؟. أليس ذلك منتهى الذل والضعف ؟. كيف أقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفي الدنيا رجل يقول انه أنقذني من الموت وله علي فضل ؟».

فظلت سمية صامتة مخافة ان يعود ابوها الى ذكر القتل، ولكنها استغربت استنكافه الاقرار بالفضل لأهله . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لأن تصورهم فضلهم يهيج حسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة. وأمثال هؤلاء قليلون والحمد الله ـ وكان عرفجة واحدا منهم ـ وتلك غاية الدناءة والخسة .

ولم تر سمية خيرا من السكوت، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها بل لعله زادها تعلقا بحسن، وتعلق ذهنها بالسعي في تحذيره. وكانت تفكر في ذلك وهي متكئة على صدر أبيها وقد بللت قميصه بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : «قومي يا سمية وارجعي الى رشدك فاني سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن لتعلمي أني انما اسأتك بأقوالي لأحسن اليك بأفعالي».

فنهضت ومشت وهي صامتة تمسح عينيها بكمها حتى اتت حجرتها فدخلت وأقفلت الباب ثم استلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذي يهدد خطيبها فأظلمت الدنيا في عينيها وأطلقت لدمعها العنان، ثم استرجعت رشدها وفكرت في أمرها وأمر أبيها وما تعرضت له بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة : «كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب وفي تعلقي به خطر على حياتي وحياته ؟. أليس هذا أبي الذي رباني وكفلني ولا يريد لي الا الخير والسعادة ؟ كيف أعصاه وأطيع هواي ؟ اليس من التعقل ان أنصاع لرأيه؟ . أما حسن فماذا يربطني به؟ . الحب؟ . وما معنى الحب؟ : ان هذا الحب سبب عذابي وعذاب أبي وعذاب حبيبي . لا . الحب عذابه عذب . آه ما أحلى الحب وما أشرف عواطف المحبين. كيف يعيش الناس بدون الحب وما الفائدة من الحياة بلا محبة؟. اني لا أرى في العيش لذة الا حين أفكر في حسن. اه ما الطف هذا الاسم. ولكن كثيرا ما كنت اسمعه قبل ان اعرف الحب فلا التذ لفظه كما ألتذه الآن. فأنا انما أتلذذ بالحب. آه ما أحلاه

وما أحلى لفظه بفمي وذكره بفكري وما أحلى صورته في عيني ! » .

ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهي تفكر في أبيها وقالت : «ولكن أبي رباني بعد وفاة امي وبقي وحده لم يتزوج من أجلي وهو يحبني ويريد سعادتي فكيف اغضبه ؟».

ثم قالت : «لا . . انه خرج في معاملته عن حقوق الابوة ، ان لحسن فضلا كبيراعلينا. ولكن أبي تنكر له ، بل أراد قتله من أجل ذلك الفضل. أراد قتل حسن ؟ ! . ان أبي ظالم ، والظالم لا يحبه الله فكيف أحبه انا ؟ . اما حسن فشهم تفانى في سبيل نجاتنا ويكفي انه يحبني واني أحبه حبا عذريا نقيا لا عيب فيه. يا الهي ما هذا الحب ؟ . اذا كنت ترى اني اخطىء فيما أقول فانزع حب هذا الشاب من قلبي . لا . لاتنزعه . . أو انزعه يا الهي . . أوكما تشاء . . . آه مالي أزداد تعلقا وهياما؟ الله هو الذي أراد أن يحب احدنا الآخر ، والحب الذي يكون خاليا من الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله».

قضت سمية ساعة في مثل هذه التصورات ، ثم تذكرت ما سمعته من تهديد أبيها فخافت ان يتمكن من حسن وهو غافل فرأت ان عليها ان تحذره حتى يقضي الله امرا كان مفعولا . .

وحدثتها نفسها ان تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن ذلك. على أنها أصبحت شديدة الشوق الى رؤيته لتشكو له ما في قلبها ويتعاهدا على الاتحاد والصبر. فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة في تلك الليلة ، وانه خارج حوالي الغروب من الباب المؤدي الى مكة فعزمت على اغتنام فرصة اشتغال أبيها، لكي تخرج وتقف له في الطريق وتخاطبه .

أما عرفجة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو حاكم المدينة يومئذ صداقة . وكان طارق يكرم عرفجة لأنه ثقفي من قبيلة الحجاج ، وكان الحجاج لذلك قد أوصاه به خيرا ، ولأنه كان قد عرف سمية وطلب الاقتران بها فوعده عرفجة بذلك ولكنه استمهله ريثما يسترضيها . ولم يشأ الحجاج أن يحملها أبوها على ذلك بالكره مخافة أن تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلي عنها كما اتفق له مع عبدالله بن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم امره عبدالملك بن مروان بطلاقها . وجلية الخبر ان الحجاج خطب الى عبدالله بن جعفر ابنته ام كلثوم على ألفى ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية . فأجابه الى ذلك وحملها اليه فأقامت عنده ثمانية أشهر. ثم خرج عبد الله بن جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدا ونزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك(ابن الخليفة)على بغلة ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب، فقال له الوليد : «لكنك انت لا مرحبا بك ولا أهلا». قال عبد الله : «مهلا يا ابن

أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك». قال : «بلى والله وبشر منها». قال : «وفيم ذلك ؟». قال : «لأنك عمدت الى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف ، فعر ضتها على عبد ثقيف يتفخذها ». قال : «وفي هذا عتبت على ابن أخي ؟». قال : «نعم». فقال عبد الله : «والله ما أحق الناس الا يلومني في هذا الا أنت وأبوك ، لان من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي ، أما انتما فمنعتماني رفدكما حتى ركبني الدين. أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه. انما فديت بها رقبتي». فلما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنان بغلته ومضى فدخل على أبيه فقال له عبد الملك : «ما لك يا أبا العباس ؟». قال : «انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبدمناف !». وقص عليه الخبر. فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يطلقها، ففعل. وخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية ان تشكوه الى عبد الملك بوساطة سكينة بنت الحسين، لعلمه انها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك.

■

وكان حسن قد ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود جمله وراءه، قاصدا الى بيت سكينة ، ولما أشرف على بيت عرفجة اختلج قلبه في صدره ، ووقف كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا ما يمكن حدوثه في غيابه. وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه وظل برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس. ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه. وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان في جملة خدم المختار بن أبي عبيد في أثناء حربه في العراق ، فلما قتل المختار سار في جملة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عندما سمع بعزمه على المدينة رغبة منه في الاقتراب من أهله في الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفجة لأنه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله ، ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية . فلما رأى سيده واقفا مبهوتا استغرب ذلك منه فخاطبه قائلا : «ما بال مولاي ؟ هل يفكر في أمر نسيه فأقضيه ؟».

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ، ولكنه تذكر ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة . فلاح له ان يستخدمه في ذلك لعله يأتي بفائدة فقال : «أتعرف عرفجة ؟».

فأجاب عبد الله ولم يصبر الى اتمام السؤ ال وقال: «كيف لا أعرفه وهو أبو سمية». فلما طرق اسمها سمع حسن خفق قلبه ، ولو لحظ عبد الله وجه سيده لرأي الاضطراب ظاهراً في محياه ، ولكنه

لم يكن يتفرس في وجهه لفرط احترامه له. اما حسن فقال: «وهل تعرف سمية؟».

فضحك عبد الله وقال: «كيف لا أعرفها وهي من قبيلتي ؟».

قال: «وهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟».

قال: «كلا، ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها، وقد اتفق لي اني رأيتها غير مرة يوم كنا في العراق».

فسر حسن بهذه المصادفة وأراد أن يستخدم عبد الله في البحث عن سمية أو مخابرتها فقال: «إذن اسمع يا عبد الله أريد أن ارسلك الى سمية في مهمة فهل تذهب؟» قال: «لك الأمر وعلي الطاعة».

فأعجب بلطف تعبيره وقال له: «بورك فيك يا عبد الله فاعلم اني قدمت في هذا الصباح الى عرفجة، وقضيت معه ساعة، ولم اتمكن من مشاهدة سمية لانها كانت مشغولة ونحن الآن سائرون الى مكة ولا ندري متى نعود فهل اخرج من المدينة قبل ان أراها ؟».

قال: «كلا بل يجب أن تراها وتخاطبها. هل أسألها موعدا للقاء ؟».

قال: «لا تستعجل يا عبد الله. فاني أخاف ان يغضب أبوها اذا اطلع على ذلك لاني سمعت بصرامته في تحجبها، فلا يليق بي ان أراها خلسة بعد ان خطبتها منه».

فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال: «ما دامت خطيبتك فلا بأس من رؤ يتها وان لم يعلم أبوها.. أتأذن لي في الدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فأحتال لابلاغها موعدك ؟».

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر، ولكن رغبته في رؤ ية سمية هونت عليه ذلك فقال: «اني ذاهب الى منزل سكينة، وأنا أعلم ان سمية كثيرة التردد اليه، فقل لها ان توافيني الى هناك».

قال: «سمعا وطاعة». ومضى يسوق الجمل وهو يقول: «سأحمل اليك الجواب في منزل سكينة ان شاء الله».

مجلس سكينة بنت الحسين

أما حسن فسار حتى وصل الى منزل سكينة بنت الحسين، فرأى بجانب الباب حظيرة تربط فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود، لأن منزلها كان مقصدالشعراء والأدباء وأهل الوجاهة من قريش وغيرهم . وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب وأكثرها للأضياف، ورأى بينها جمل ليلى الأخيلية.

فلما انتهى الى باب بستان الدار دخل ولم يستأذن، لأن الناس كانوا يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان، ومشى في باحة كبيرة رأى في بعض جوانبها غرفا عديدة في صف واحد عرف انها دار الاضياف ، ثم رأى في صدر البستان بيتا متقن البناء على بابه الخدم، فعرف انه مسكن سكينة، فتحول الى دار الاضياف لعله يرى ليلى هناك فيقيم معها ريثما تأتي سمية فتكون له وسيلة الى مقابلتها، فبلغ دار الاضياف والخدم يقومون باعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها ، وقد سره اشتغالهم عنه لكي يتمكن من البحث عن ليلى، فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد احدا يعرفه فظل ماشيا وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكينة بعضها من الخدم في الخارج والبعض الآخر من الداخل . وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقأة مثل قوقأة الدجاج، فمشي الى مصدر الضحك فاذا هو في غرفة بجانب باب المسكن وببابها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم وألقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فأطل حسن من فوق أكتافهم فرأى هناك رجلا قصيرا دميما، قليل اللحم، أزرق اللون، أحول البصر، أقرع الرأس ، أثط اللحية جلس القرفصاء على أكمة من التبن وهو يحضن بيضا ويقوقىء كما تقوقىء الدجاجة، فاستغرب حسن ذلك ونظر الى أحد الوقوف مستفهما فقال له الرجل: «ألا تعرف من هذا؟».

قال : «لا . . ومن هو ؟».

قال : «أشعب الطماع الذي اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكا لها ».

قال حسن: «أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة ، ولكن منظره أضحك من أخباره. ما الذي اقعده هذا المقعد وهو يقوقىء كأنه يحضن بيضا ؟».

قال الرجل : «بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدي سكينة مولاته ، فأمرته ان يقعد على هذا البيض حتى يفقس وقد مضى عليه أيام وهو على هذه الحال !» .

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه لطول انتظاره خادمه ، وأراد ان يشغل نفسه هنيهة أخرى فقال : «يا أشعب ما الذي أجلسك هذا المجلس ؟» .

قال : «أجلستني اياه مولاتي سكينة ، فهل فيكم من يخرجني من هذا الحبس ؟» .

فقال حسن : «ومن يتوسط لك في هذا الامر ؟» .

قال : «كأني بليلى الاخيلية قد دخلت دار مولاتي اليوم ، فاذا كانت هنا ، فلا أرى أقدر منها على اخراجي من هذا المكان» .

قال حسن : «هان الامر ، فلك علي أن أوسط ليلى في العفو عنك» .

■

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه عبد الله واقفا على بضع خطوات منه فقال حسن : «ما وراءك ؟» .

فدنا عبد الله منه وقال : «دخلت البيت وسألت عن عرفجة فقيل لي انه خرج في الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف أحد مقره» .

فابتدره حسن قائلا : «وسمية ؟» .

فقال : «وسألت عن سمية فعلمت انها ذهبت الى سكينة من برهة قصيرة فسررت بذلك وأتيت لاخبرك ، فهل رأيتها هنا ؟» .

قال : «لم أرها ولعلها في البيت مع النساء ، فكيف أصل اليها ؟ . بورك فيك يا عبد الله ، امكث انت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى اخرج او أحتاج اليك في شيء» .

قال : «سمعا وطاعة » . وخرج .

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى ، فجاء باب القاعة التي تستقبل سكينة فيها ضيوفها ، فرأى عليه رجلا واقفا وقوف الحاجب فقال له حسن : «هل في مجلس بنت الحسين أحد ؟» . . .

قال الرجل : «ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات» .

قال : «وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟» .

قال : «نعم » .

قال : «قل لليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه».
فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رحبت به فمشى بها الى خلوة وقال لها : «اني مسافر الليلة وقد جئت لوداعك».
قالت : «رافقتك السلامة ووفقك الله في مهمتك».
قال : «ولكني أعرض عليك امرا أرجو مساعدتك فيه الآن وهو لا يتعبك».
قالت : «وما هو ؟».
قال : «أتعرفين سمية بنت عرفجة ؟».
قالت : «نعم أعرفها وقدرأيتها لمن برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها وسكينة تلاطفها لأنها تحبها كثيرا . وأنت ما شأنك معها ؟».
قال : «شأني معها شأن الخطيب وخطيبته فهل هي لا تزال هناك ؟».
قالت : «لقد سرني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . وأظنها باقية لأني لم أرها خرجت . وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة فتمكث انت مع الجلوس من الرجال وأدخل انا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة وصاحباتها فأبحث عن سمية».
قال : «أرجو ان تجمعيني بها ساعة لا يرانا فيها أحد سواك، لأني خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت المدينة بالامس، وها أنذا خارج الآن ولم أشاهدها أو أخاطبها».
قالت : «لك علي ذلك».
قال : «خير البر عاجله ، فاني مسافر عند الغروب ».
قالت : «الا تؤجل سفرك الى غد ؟».
قال : «كنت أود ذلك ولكنني على موعد مع صديق لكي نسير معا، وسيوافيني عند الغروب الى باب المدينة». ثم غير مجرى الحديث فقال : «وأوصيك بأشعب الطماع فانه يحضن بيضا عقابا له على ذنب ارتكبه وقد وعدته بأن تتوسطى له لدى مولاته سكينة، فلا تنسيه».
فضحكت وقالت : «قبحه الله ما أكثر مزاحه، ولكنه وافق هوى في نفس سكينة، فهي كذلك تحب المزاح، وقد تعودت معاقبته بمثل ذلك العقاب، وحضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريخه فملأت الدار، وهي تسميها(بنات أشعب). اني ذاهبة وسأكلمها في شأنه. فتعال معي واجلس مع الجالسين فاذا لقيت سمية أومأت اليك فتخرج».

■

دخلت ليلى ودخل حسن في أثرها . ثم أطل على القاعة فاذا هي واسعة وقد فرشت

بالطنافس الثمينة، وحولها الوسائد المزركشة وفي صدرها ستارة عليها صور أشجار وطيور ملونة خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها .

ورأى في القاعة جماعة قد تصدرهم خمسة عليهم لباس البدو، فسألها : «من هؤلاء المتصدرون ؟».

قالت : «هم الشعراء . ألا تعرف أحدا منهم ؟».

قال : «أظنني أعرف الجالس على الوسادة المثناة، فهو الفرزدق، وقد عرفته بضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه أليس هو الفرزدق ؟».

قالت : «نعم انه هو بعينه . الا تعجب من اجتماعه هو وجرير في مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟».

قال : «أبن جرير ؟». .

قالت : «هو ذاك الذي كف شعره وادهن ، ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من أنفه كأن فيه نونا».

قال : «ومن هو الآخر القصير الدميم العظيم الهامة ؟». قالت : «هو كثير عزة العاشق المشهور».

قال : «أعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح . ومن ذاك الشاب الجميل العريض المنكبين الحسن البزة. وكأنه جالس القرفصاء ؟». قالت : «هو جميل بثينة أحد عشاق بني عذرة . الا تراه حزينا لما اشتهر من حبه لها وحرمانه لذلك منها ؟».

قال : «ومن ذلك الأسود . ؟ اني لأستغرب منظره ، والشعراء يندرون في السود ؟».

فضحكت وقالت : «هو نصيب الشاعر الفحل . وأما سواده فلأن امه أمة، وهو من قضاعة». ثم أشارت عليه بأن يجلس على احدى الوسائد وان ينتظر ما يكون من شأنها مع سمية .

فجلس وهو يخاف فوات الوقت ولم يكد يستقر به المقام حتى سمع لغطا من وراء الستار فاستبشر وظن ان ليلى تخاطب سكينة أو سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت : «أيكم الفرزدق ؟».

وكان حسن يتوقع ان تناديه فلما سمعها تنادي الفرزدق التفت اليه فرآه يقول : «ها أنذا».

قالت : أنت القائل :

«هما دلياني من ثمانين قامة كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا أحي فيرجى ؟ أم قتيل نحاذره ؟

فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا وأفلت في أعجاز ليل أبادره»

قال : «نعم».

قالت : «فما دعاك الى افشاء السر؟ خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك ». فأخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت : «أيكم جرير ؟». فلما عرفها جرير نفسه قالت : « أنت القائل :

«طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير ذمام
اني أواصل من أردت وصاله بحبال لا صلف ولا لوام»

قال: «نعم».

قالت: « أفلا اخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها؟. أنت عفيف وفيك ضعف. خذ هذه الألف والحق بأهلك». فأخذها وانصرف. ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت: «أيكم كثير؟» فلما عرفته قالت: « أنت القائل:

«واعجبني يا عز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك اسباب المنى حين يطمع
وأنك لا تدرين صبا مطلته أيشتد أن لاقاك أو يتضرع
وأنك إن واصلت علمت بالذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع»

قال: « نعم».
قالت: « قد ملحت وشكلت، خذ هذه الألف واذهب لأهلك».
ودخلت وخرجت وقالت: « أيكم نصيب؟». قال نصيب: « أنا هو»
قالت: « أنت القائل:

«ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار»

قال : «نعم».
قالت: « ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً، خذ هذه الألف والحق بأهلك». فأخذها

وانصرف. ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل: «مولاتي تقرئك السلام وتقول لك: «(ما زالت مشتاقة لرؤ يتك منذ سمعت قولك:

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى أني إذن لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد»

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك». فأخذها وانصرف.

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس. لأن اهتمام النساء بالشعر والأدب وجلوسهن لمثل تلك المطارحة كان شائعاً في تلك الأيام ونبغ من النساء شاعرات ماهرات منهن ليلى الاخيلية وغيرها: ولكنه استغرب اهتمام سكينة على رفعة مقامها بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه. وكان يسمع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلى عنه ولم يكن يدري كيف يدعوها أو يستعجلها فرأى أن يسمعها صوته، وكان قد لاحظ وجود صور للطير والأشجار على الستار الحاجز بين مجلسي الرجال والنساء، كما لاحظ وجود امثالها على الوسائد، فرأى أن يتخذ من ذلك موضوعاً لإسماع ليلى صوته. وما كادت الجارية تفرغ من مخاطبة الشعراء وتهم بالدخول بعد أن انصرفوا، حتى استوقفها وقال: «تمهلي يا بنية».

فوقفت والتفتت اليه فقال لها: «لقد باحثت هؤلاء الشعراء وافحمتهم فانصرفوا فهل أسألك سؤ الاً؟».

قالت: «قل ما شئت»

قال: «أرى على ستاركم صوراً وقد قال رسول الله(ﷺ): (أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون). . ؟».

فأشارت الجارية إليه أن يتمهل ودخلت إلى سيدتها، ثم عادت اليه وقالت له: «وما يضرنا وما نحن من المصورين؟».

قال: «ولكنكم اتخذتم تلك الصور استاراً. ولو كانت تلك صور أشجار فقط لهان امرها، ولكنها صور لذوات ارواح، وفي الحديث (أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة). . ».

وهنا سمع صوتاً جهورياً من وراء الستار يقول: «(لا تنس تتمة الحديث) إلا رقماً في ثوب). . ». فأدرك أن ليلى هي المتكلمة. وسكت بينما عادت الجارية إلى مجلس النساء ولبث هو على مثل الجمر لا يدري ماذا يصنع، والتفت نحو نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت إلى الغروب فازداد قلقه وخشي أن يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة.

■

وبينما هو يفكر في ذلك إذ سمع لغطاً وراء الستار اعقبه ضحك كثير وصوت يقول: « قد اطلقنا سراحه اذهبي يا بنانة واخرجيه، قبحه الله ما اخبثه». فأدرك أن سكينة هي المتكلمة، ولكنه ظنها تريد إخراجه هو فاضطرب. ثم ما لبث أن رأى ليلى خارجة وهي تشير اليه أن يتبعها، فسار في أثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منه وقالت: «لا تخف إنها لم تأمر باخراجك ولكنها امرت بإخراج اشعب الطماع لأني اوصيتها به عملاً بإشارتك».

فقال: « بورك فيك، ولكن اين سمية؟».

قالت: «ليست هنا، كانت في المجلس وخرجت قبل أن أراك».

فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال: « هل أنت على يقين مما تقولين؟».

قالت: « لقد تحققت خروجها فلعلها خرجت إلى بيت أبيها لأنها لا تستطيع الغياب طويلاً عنه».

وفيما هما يتكلمان رأيا اشعب مهرولاً نحوهما، فلما بلغ مكانهما هم بتقبيل يد حسن وقال: «جزاك الله عني خيراً فقد انقذتني من عذاب طويل لأن البيض لم يكن ليفقس قبل بضعة أيام، فأسأل الله تعالى أن يقدرني على مكافأتك. هل استطيع خدمتك في شيء؟».

قال حسن: « اني لم افعل ما يستحق هذا الثناء». ثم التفت إلى ليلى كأنه يريد الرجوع إلى الموضوع، فتنحى اشعب قليلاً وقال حسن: « استودعك الله يا ليلى، وأرجو أن أراك في خير». فقالت: « أسأل الله لك السلامة والنجاح».

وعجل حسن بالخروج لعله يلقى سمية في الطريق او في البيت أو في مكان آخر. فلما خرج وجد خادمه عبد الله في انتظاره ومعه الجمل، فركب والشمس قد آذنت بالمغيب وبان الشفق الأحمر، وما زال يحث جمله حتى بلغ بيت عرفجة فأحس بشيء استوقفه بغتة وما هو إلا عامل الحب اوقفه بجانب منزل الحبيب فلم يتمالك أن نادى عبد الله، فجاء هذا ووقف بين يديه وهو يقول: « هل أسأل عن سمية فلعلها عادت؟».

فأعجب حسن بنباهته ودقة شعوره. وابتسم ولم يجب، فأسرع عبد الله إلى البيت ثم عاد وهو يقول: «إنها لم تعد يا سيدي».

فتنهد حسن، وخيل اليه أن سمية باقية هناك في بيت سكينة ولكن ليلى لم ترها، أو إنها رأتها وأخفت أمرها. وتكاثرت عليه الهموم وتراكمت الظنون ـ والمحب سيء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه وزاد سوء ظنه بحبيبته واكثره من قبل الغفلة، فإذا رأى حبيبه يخاطب احداً مهما يكن من شأنه او مقامه او قرابته تبادر إلى ذهنه أن يغازله أو يسر إليه أمراً. وإذا ابطأ عليه بالزيارة سبق إلى فهمه أنه في موعد مع آخر لا يحبه أو يحب سواه. وقد يخيل له أن اهل الحبيب كلهم ضده وأنهم يمنعونه منه فإذا تخاطبوا همساً أو قصروا معه في شأن خيل له أنهم

يريدون به سوءاً أو هم ينصبون له احبولة فالمحب كثير الهواجس سيء الظنون.

فلا تلم حسناً إذا أساء الظن بليلى وحسبها تآمرت على إخفاء سمية عنه. وقضى برهة في مثل هذه الهواجس وهو على جمله، ثم انتبه فإذا بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما أبداه الرجل من الرغبة في مرافقته وبالغ في اكرامه والتقرب منه، فاستحث جمله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية، وان علل نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة.

المفاجأة السارة

سار حسن بضع دقائق صامتاً حتى اشرف على باب المدينة، ومن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل. وفيما هو ينظر إلى ما وراء الباب إذا بشبح وقف له في الطريق هاتفاً باسمه فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه، ثم امسك زمام جمله ونظر إلى الشبح فإذا هو امرأة، فحدثه قلبه بأنها سمية فوثب على الأرض حتى وقف بين يديها، وتنحى عبد الله وقد أخذ بزمام الجمل وتشاغل بإصلاح الرجل.

أما حسن فإنه نادى: «سمية؟».

قالت: «نعم، ومن الذي معك؟».

قال: «هو خادم امين لا تخافي منه. ما الذي جاء بك إلى هنا في هذا الليل؟ أنت سمية حقيقة؟! . . ما ألطف هذا اللقاء وما أسعد هذه الساعة! . سمية حبيبتي قولي ما بدا لك».

فتنهدت واسندت كتفها إلى حائط هناك وتشاغلت بإصلاح نقابها، وسكتت.

وقد سر حسن لسعيها إلى ملاقاته، ولكنه اوجس خيفة مما دعاها إلى ذلك لما يعهده في أبيها من الشدة والغلظة فقال لها: «اني لا أرى في هذه الدنيا احداً اسعد مني الآن، وقد بذلت الوسع في سبيل الحصول على هذه المقابلة فلم افز، وها قد اتتنى الساعة عفواً فالحمد لله، ولكنني اخشى أن يكون لهذه المخاطرة سبب يسوء». فتحيرت سمية ولم تدر بم تجيبه فلبثت صامتة. فازداد هو قلقاً وقال لها: «ما بالك؟ قولي. لعلك علمت بذهابي إلى مكة فخفت خطراً يهددني هناك؟».

فلما سمعت ذكر الخطر اجابته والبكاء يخنق صوتها: «نعم أخاف عليك الخطر، ولكن ليس في مكة فقط بل. .». وشرقت بالدمع فانقطع صوتها.

فتقطع قلب حسن ومد يده فأمسك أناملها. وهي أول مرة قبض فيها على تلك الأنامل، فأحس برعشة تملكته وقال لها: «ماذا؟ . قولي يا سمية. يامالكة قلبي. هل تخافين علي احد في هذه المدينة أيضاً؟إنك ما دمت لي لا تحبين سواي فلست أبالي بعد ذلك إذا كان أهل الأرض كلهم اعدائي!».

قالت: «وإذا كنت أنا عدوتك؟».

فحمل منها ذلك على قصد المزاح وقال لها: « إذا كنت انت عدوتي فلا غرض لي في الحياة. بالله قولي ما في نفسك. ممن تخافين علي؟ فأريك دمه مسفوكاً ولو كان حوله جيش جرار. قولي».

فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهي تقول: « لا اريد أن أرى دمه مسفوكاً».

فتعجب وقال: «وماذا إذن؟ افصحي يا سمية. قولي. ممن تخافين علي؟ فقد نفذ صبري وطال تأخري عن الخروج من المدينة ولي صديق ينتظرني في الخارج. قولي».

قالت: « اني اعد قولي عقوقاً مني. ولكنني اسيرة حبك لا أرى لي حياة إلا بك».

فقطع حسن كلامها وقد أدرك ما تريده فقال: «قد فهمت ما تريدين. إنك تخافين علي من أبيك. أليس كذلك؟».

قالت: «نعم». واستغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها وكان هو مازال ممسكاً بيسراها، فأمسك بيدها الأخرى وقال لها: « ولا هذا يهمني ما دمت تحبينني. هل تحبينني يا سمية؟».

فصعدت الزفرات ولم تجب، فقال: «فإذا كنا متحابين فمن ذا يحول بيننا؟».

وسكت برهة وقد عظم عليه الأمر ثم قال: « وما الذي دعا أباك الى بغضي والحاق الأذى بي وأنا لم أرتكب منكراً ولا أسأت اليه في شيء؟».

قالت: « ذنبك أنك أحسنت اليه. او لعل ذلك من سوء حظي. ولكن ما لنا ولهذا، ان الوقت لا يأذن بطول الشرح. فأخبرك أن أبي لا يريدك، وأخاف أن يسعى في أذاك. وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا، فأردت اطلاعك على جلية الخبر لتكون على بصيره.».

قال: «اما الحاق الأذى بي فإني لا اخافه، ولكنني اخاف ان يلحق الأذى بك انت».

قالت: « لقد اظهرت له الطاعة والرضا ريثما اراك ثم افعل ما تأمرني بي».

فأطرق حسن ثم قال: « اني مغلول اليدين بما اخذته على نفسي من أمر السفر إلى مكة عاجلاً في مهمة لرجل احبه وله علي فضل كبير. وكنت احب ان ادعوك للذهاب معي ولكنني ذاهب إلى مكان به الحرب قائمة فلا أريد تعريضك لهذا الخطر».

فقطعت كلامه قائلة: « وكيف تعرض نفسك للخطر؟ إن مكة اليوم في أضيق، حصار وأهلها في ضنك شديد. بالله الا عدلت عن الذهاب ثم تفعل ما تريد؟».

قال: « أ ما الذهاب فلا بد منه فامكثي أنت هنا واظهري الطاعة حتى اعود ونرى ما يكون. ولست اخشى بأساً ولا خطراً ما دمت لا تحبين سواي». ثم سمع جعجعة الجمل فانتبه للوقت وقال لها: « كنت أود الا نفترق منذ الآن ولكن للضرورة احكاماً. وسأرسل عبد

الله معك إلى منزلك لأن الليل قد اظلم ولا آمن عليك المسير وحدك، فهل تسيرين إلى بيت ابيك؟».

قالت: «لا ولكني اعود إلى بيت سكينة لأن ابي يعلم اني سرت اليها فإذا استبطأني سأل عني هناك فاعتذر عن تأخري، وذلك من غير أن يراني عائدة إلى البيت وحدي في هذا الليل. ولكن كيف افارقك؟».

قال: «تشددي يا سمية ان سفري هذا لا بد منه، ولكنه سيكون آخر الأسفار بإذن الله ثم نعود ونعيش معاً».

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه، وكاد يشاركها البكاء لولا أنه تجلد وقال لها: «لا تبكي يا سمية بل اتكلي على الله واعلمي أني عائد اليك على عجل». قال ذلك ونادى عبد الله وقال له: «أوصل سمية إلى بيت سكينة، ثم الحق بي في الطريق المؤدي الى العقيق، فاني سابقك إلى هناك، فقد ابطأت على سليمان وأخاف ان يكون قد سبقني او عاد إلى منزله».

■

سارت سمية وهي تقول لحسن: «سر في حراسة الله، وأسأله أن ينصرك على اعدائك». وظل صوتها يرن في أذنيه حتى توارت عنه، فركب جمله وساقه إلى باب المدينة ولم يكن مقفلاً فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان.

فخرج وهو يمشي الهوينى ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتاً، وجعل يحدق بعينيه لعله يرى احداً فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات. ولكنه لم يسر طويلاً حتى سمع جعجعة جمل عن بعد فاستوقف جمله وأصاخ بسمعه وحول الزمام إلى جهة الصوت وساق الجمل سوقاً بطيئاً فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد فلم يكن يسمع غير وقع خفاف الجمل على العشب أو الطين.

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين، فوقف واصغى، فسمع صوتاً عميقاً، وخشي أن يجعجع جمله فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده إلى نخلة، ثم مشى على قدميه وهو يتلمس الأرض مخافة أن يخوض في الأوحال حتى تحول عن الطريق الأصلي إلى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب، فرأى جملاً معقولاً وشبحاً متوسداً إلى جانبه وفوق رأس الشبح شبح آخر يبكي وينتحب. فاختبأ حسن في منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه احد، فسمع صوتاً يقول: «يا لتعاستي وشقائي! لقد فتكت بك يا ولدي وفلذة كبدي، اني لاستحق هذا القصاص، ولكن ما ذنبك أنت؟ تباً لي ما اتعس حظي! ولدي! حبيبي! كلمني يا سليمان. سليمان.. سليمان».

فلما سمع حسن اسم سليمان علم انه صديقه، فاقشعر بدنه وخشي أن يكون قد أصابه سوء بسببه، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى اقبل على الشبحين ولم ينتبه له احد.

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف: «لا تحزن يا أبي فقد ذهبت فداء صديق لي هو احق بالحياة مني».

فقال الآخر: «أظنك تعني هذا الشقي لأنه وفي بعهده. اني عاهدت الله على نصر الحسين والقتال في سبيله وجعلت نفسي في عداد التوابين، ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة. وكثيراً ما رأيتك غير راضٍ بذلك، فلم اكن اصغي اليك حتى ضربني الله هذه الضربة على قلبي!».

فتحقق حسن ان الراقد سليمان، وأنه في ضيق، فلم يتمالك عن أن صاح قائلاً: «سليمان؟».

فأجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه، فوقف للحال وقال: «انسى انت ام جني؟». وكان الرجل كهلاً في نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة. ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس في عينيه فإذا هو يفتحهما فتحاً ضعيفاً ويتألم فأمسكه حسن بيده وقال له: «سليمان؟. أخي سليمان! ماذا اصابك؟».

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذني الجريح، ففتح عينيه وصاح: «حسن؟ أشكر الله على أن جعلني فداءك».

ولم يتم سليمان كلامه حتى تقدم الرجل الآخر وقال: «حسن؟ أنت حسن؟. يا لله ما هذه المصيبة التي نزلت بي بسببك ولكن الذنب ليس ذنبك وإنما هو ذنبي أنا الشقي التعس!».

فأدرك حسن أن الكهل والد سليمان، وأنه كان يترصده فأصاب ابنه خطأ. فصرف عنايته إلى إنقاذ حياة سليمان، وحاول أن ينهضه قائلاً لأبيه: «عليّ بالماء». فجاءه بشيء منه من مستنقع قريب، فرش به وجه سليمان وغسل موضع الجرح في اعلى الصدر، وكان قد أصيب بنبلة اخرجها ابوه.

وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الأموي في دمشق، لأن خالداً كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش، وكان بصيراً بصنعة الكيمياء والطب متقناً لهما، وألف في ذلك بعض الكتب والرسائل وقد اخذ العلم عن راهب اسمه «يانس». ولم يكن مجلس خالد في دمشق يخلو من أهل العلم فكان حسن

يجالسهم ويسمع اقوالهم.

فلما غسل الجرح ضغطه، وأمر أبا سليمان بإيقاد النار فأوقدها بالزناد، ثم انتظر حسن حتى تكون بعض الرماد فأخذ قليلاً منه وذره فوق الجرح وربطه.

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل: «ليس معي قربة».

فقال حسن: «اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتي». قال ذلك ونهض، ثم تحول نحو النخلة التي عقل جمله عندها فلم يجد الجمل هناك فطار صوابه لأنه كان قد ترك كتاب خالد بن يزيد في مخبأ بالرحل الذي فوق الجمل حرصاً عليه، وهذا إلى أن الجمل كان عزيزاً عنده وعليه عدته وثيابه والماء وكل شيء. على أنه لم يشأ أن يضيع الوقت وسارع إلى اقتفاء آثار الجمل، وكان قد لاحظ ان حل عقال الجمل لا يدل على حدوث عنف، فتبادر إلى ذهنه انه لم يعقله عقلاً متيناً فانحل من تلقاء نفسه، وانطلق الجمل هائماً على وجهه أو يطلب المرعى هنا وهناك.

وسار حسن في طلب الجمل مضطرباً خائفاً لأنه غريب في تلك البلاد، ثم وقف ونظر إلى ما حوله من الغياض والبساتين والظلام حالك، فلاح له ظل يتراءى بين النخيل امامه، فتفرس جيداً واصغى بسمعه فسمع هدير جمل هناك فأخذ طريقه اليه، ولاحظ أن ذلك الشبح يبتعد، فسارع السير في اثره وهو يتعثر بالأعشاب والأحجار ونظره شاخص اليه، وما زال يمشي والشبح يمشي امامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة، فما كاد حسن يتفرس في الشبح حتى ادرك انه هو جمله فواصل السير في اثره، وكان الجمل اجفل من المطاردة فأسرع في سيره، وظل سائراً مدفوعاً برغبته في القبض عليه حرصاً على ما يحمله.

جميل وبثينة

وفيما هو يركض ويلهث إذا به يرى شيخاً عليه لباس الرعاة يسير عاري الرأس وقد غرس عصاه في قفا طوقه، وعليه عباءة قصيرة وخشونة البداوة بادية في وجهه مع شدة الظلام. فناداه حسن: «يا اخا العرب، الم تر بعيراً راكضاً هنا؟».

وما اتم حسن سؤاله حتى اسرع الرجل اليه وأمسك بذراعه وضغطها بشدة في حين أشار اليه ان يسكت وينتظر، فالتفت حسن إلى ما حوله فرأى شجرة كبيرة على أكمة ورأى هناك ظلاً يتحرك، فهمس في أذن الشيخ قائلاً: « ما شأنك؟. اخبرني».

قال: « لقد اتفق لي اليوم حادث غريب مع رجل لقيته على غير معرفة فإذا اصغيت لي قصصت الخبر عليك، ثم نذهب ونستطلع بقيته معاً عند تلك الشجرة».

قال حسن: «ولكن هل رأيت جملاً راكضاً من هنا؟».

قال: «نعم رأيته وأظنه طلب هذا الوادي، ولا تخف عليه فإني كفيل برده اليك، لأني اعرف رجال الحي وهم يعرفونني، والأبل سارحة عندهم ولا خوف عليها».

قال حسن: « وأي واد هذا؟».

قال: « هو وادي القرى».

قال حسن: « اليس هو موطن بني عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم؟».

قال: « هو بعينه. والحادث الذي وقع لي اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء. فأعرني سمعك لأقص عليك الخبر».

فمال حسن إلى سماع الحديث، وأهل الغرام يميلون إلى احاديثه، فقال الرجل: «قضيت في هذه الأودية معظم فصل الربيع ارعى ابلي، فجاءني في أصيل ايوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان، فسلم علي ثم قال: «ممن أنت يا عبد الله؟». فقلت: « (احد بني حنظلة). قال: (فانتسب). فانتسبت حتى بلغت فخذي الذي أنا منه. ثم سألني عن بني عذرة أين نزلوا فقلت له: (هل ترى ذلك السفح إنهم نزلوا من ورائه). قال: «يا أخا بني حنظلة، هل لك في خير تصطنعه لي، فوالله لو اعطيتني ما ترعاه من هذه الابل ما كنت بأشكر عليها مني لك عليه).

«فقلت: (نعم ومن انت؟). قال: لا تسألني من أنا، ولن اخبرك بأكثر من اني رجل بيني وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بني العم، فإن رأيت ان تأتيهم فإنك تجد القوم في مجلسهم فتنشدهم بكرة ادماء تجر خفيها عقلاء من السنة. فإن ذكروا لك عنها شيئاً فذاك، والا فاستأذنهم في دخول البيوت وقل: «ان المرأة والصبي قد يريان مالا يرى الرجال. فإذا اذنوا لك فادخل بين البيوت واسأل أهلها حتى لا تدع أحداً تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم إلا وقفت به وسألت)..».

فدهش حسن واشتدت رغبته في سماع بقية القصة، وعاد الشيخ إلى الكلام فقال: «فأتيت القوم فإذا هم على جزور يقتسمونها، فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتي، فلم يذكروا لي شيئاً، فاستأذنتهم في دخول البيوت وقلت: (ان الصبي والمرأة قد يريان مالا يرى الرجال). فأذنوا. فأتيت اقصاها بيتاً ثم مضيت اطوف بها بيتاً بيتاً أسألهم فلا يذكرون شيئاً. حتى إذا انتصف النهار وآذاني حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لانصرف، حانت مني التفاتة فإذا بثلاثة أبيات فقلت في نفسي: (ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم). ولكني عدت فقلت لنفسي: (أيثق بي رجل يؤكد ان حاجته تعدل كل مالي ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة ابيات؟). فانصرفت عامداً إلى اعظمها، فإذا اهله قد ارخوا مؤخره ومقدمه، فسلمت فردوا السلام. وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم: (يا عبد الله قد أصبت ضالتك، وما اظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب). قلت: (اجل). قالت: (ادخل). فدخلت فاتتني بصفحة فيها تمر من هجر، وقدح فيه لبن، والصفحة مصرية مفضضة والقدح لم أر أناء قط احسن منه. فقالت: (دونك). فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت. فقلت: (يا امة الله، والله ما اتيت اكرم منك ولا احق بالفضل، فهل ذكرت عن ضالتي شيئاً). فقالت: (هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف؟). قلت: (نعم). قالت: (ان الشمس غربت امس وهي تطوف حولها، ثم حال الليل بيني وبينها). فظننتني فهمت مرادك فقلت: (جزاك الله خيراً، والله لقد تغديت ورويت). ثم مضيت فأتيت تلك الشجرة وطفت بها فما رأيت اثراً. فأتيت صاحبي فإذا هو متشح بكسائه وقد قبع بين الأبل ورفع عقيرته يغني فقلت: (السلام عليكم). قال: (وعليكم السلام، ما وراءك؟). قلت: (ما ورائي شيء). قال: (لا عليك، فأخبرني بما فعلت). فقصصت عليه القصة حتى انتهيت إلى ذكر المرأة واخبرته بما صنعت فقال: (قد اصبت طلبتك). فعجبت لأني لم اجد شيئاً. ثم سألني عن صفة الأناءين والصفحة والقدح، فلما وصفتها له تنفس الصعداء وقال: (قد اصبت طلبتك والله). ولما ذكرت له حديث الشجرة وغروب الشمس وهي تطوف حولها، بدا البشر في وجهه وقال: «(حسبك). ففهمت انها ضربت له موعداً للقائه عند هذه الشجرة بعد الغروب. ومكث حتى

اوت ابلي إلى مباركها، فدعوته إلى العشاء فلم يدن منه وجلس مني بمزجر الكلب. حتى إذا ظن اني نمت، قام إلى عيبة له فأخرج منها بردين، ارتدى احدهما واتتزر بالآخر ثم انطلق نحو الشجرة. وهو الذي تراه جالساً هناك بقرب جذع الشجرة، وسنرى ما يكون من اجتماع الحبيبين».

أمسك الشيخ حسناً بيده، وجذبه الى الجلوس بجانبه على الأرض بين شجيرات هناك، ثم أشار بيده صامتاً نحو شبح صاعد من الوادي وعليه لباس النساء، ومعه شبح آخر وقال: « هذه هي الفتاة ومعها خادمتها، اضطجع مكانك لنرى مايكون».

فانبطحا. وبعد قليل زحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا في مكان بحيث يريان ويسمعان ما يدور بين الفتى والفتاة.

ولو أن الليلة كانت مقمرة، لتبين لهما ما ارتسم على وجه الفتى حين وصلت الفتاة، فوقف وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه في خلاء وظلمة، وكان قلب حسن في اثناء ذلك يضرب ضربات سريعة مخافة أن يرى من الحبيبين ما يخجله أو يهيج غيرته، فندم على اصغائه للشيخ الراعي لما في اختلاس اسرار الناس من أمر منكر. على أنه أحس بميل شديد لاستطلاع ما يدور بين هذين العاشقين. واستطلاع مثل هذه الأسرار مما تتوق اليه النفس. والميل إلى ذلك عام في الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا في احترام تلك الأسرار والاغضاء عن استطلاعها عملاً بالآداب العامة.

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس إلى رؤيته ولا سيما عند أهل الغرام فلا عجب إذا اختلج قلب حسن واصطكت ركبتاه واقشعر بدنه. ولم يكن سبب ذلك التأثر إلا توقعه امرأً يخاف ان يراه ولا يريد أن يفوته. ولكنه ما كاد يرى العاشق واقفاً لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته انه جميل الذي رآه أصيل ذلك اليوم في مجلس سكينة. فتحقق ان الفتاة هي بثينة، لأنه كثيراً ما كان يسمع أحاديث غرامهما وكيف منعه اهلها منها ولكنه ما زال يحبها حباً مفرطاً، كما أنها تحبه هي ايضاً. وكان حسن يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولكنه لم يكن يصدق أن مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقباء يكون مقصوراً على إلقاء التحية.

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لا يمس ثوبه ثوبها ولا يده يدها. جلسا متقابلين ينظر احدهما إلى الآخر ولا يفوه بكلمة إلا ما كان عتاباً او تشاكيا، ولا يقولان فحشاً ولا هجراً. فاستغرب حسن ما رآه من العفة الصادقة، ثم سمع الفتاة تنادي خادمتها وكانت الخادمة قد وقفت على مقربة منها، فجاءت تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحادثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة: « بلغني انك قلت في اشعاراً فهل انت على حبك؟».

قال: «لا اعرف في لغة البشر لفظاً يعبر عما في قلبي ، فإنه اعظم من الحب، واشد من الغرام، وأرقى من العبادة. لا ادري ما هو يا بثينة فإذا اكتفيت بتسميته حباً فإني لاأراه يؤدي ما في قلبي».

قالت: « وكيف ذلك؟».

قال: « لا أدري يا حبيبتي. لا ادري كيف هو ولا ما هو!». ثم صعد الزفرات وقال: «إنما اعلم انك نصب عيني أينما سرت وحيثما جلست وكيفما نظرت. ان بثينة امام عيني، أراها جسماً واضحاً ومن عداها من الناس اراهم اشباحاً او ظلالاً. ولم اسمع اسمها الا اضطربت جوارحي وخفق قلبي، ولا أرى راحة إلا بالبكاء، حتى قلت:

(خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلي؟).»

فقالت بثينة: « إذا كنت أنت كذلك فكيف أنا، ولكننا معشر النساء مقضي علينا بالتعب والشقاء، فلا تقدر احدانا على بث شكواها إلى احد لئلا ينثلم عرضها. وأما انتم معشر الرجال فلكم الحرية كلها. وأنت تزعم انك تحبني حباً لا تدري مقداره. فهل يهجر محب حبيبه وقد احبه إلى هذا الحد؟ فوالله ما اعلم ما تسمعه عنى أو تقوله في اثناء الغياب الطويل. ولا أدري موقع بثينة ممن يقع بصرك عليهن؟». قالت ذلك بنغم الدلال فازداد جميل هياماً وقال لها:

«اني لاحفظ غيبكم ويسرني إذ تذكرين بصالح ان تذكري
ويكون يوم لا أرى لك مرسلاً او نلتقي فيه، علي كأشهر
يا ليتني ألقى المنية بغتة ان كان يوم لقائكم لم يقدر
لا تحسبي اني هجرتك طائعاً حدث لعمرك رائع ان تهجري
يهواك ما عشت الفؤاد وأن أمت يتبع صداي صداك بين الأقبر»

فما تمالكت بثينة عند سماعها قوله ان غصت بريقها وقال:

«وهل أنت الذي قلت:

«ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى اني اذن لسعيد
وهل ألقين فرداً بثينة مرة تجود لنا من ودها ونجود»

قال : «نعم».

قالت: « وما الذي ترجو أن نجود به ونحن بنو عذرة». ؟

قال: « لا اطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب

«لا، والذي تسجد الجباه له مالي بما تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ما كان إلا الحديث والنظر».

فأطرقت بثينة خجلاً ثم قالت: « ذلك عهدنا بجميل، ولولا ذلك ما رأيتني اسعى اليك وحدي».

فلا تسل عن استغراب حسن والراعي ما رأياه حتى هانت على حسن نفسه لأنه لم يكن يظن أنه يستطيع ما استطاعه بجميل إذا التقى بسمية.

قضى جميل وبثينة ساعة في مثل ذلك ثم نهضت فودعته احسن وداع، فودعها بمثله، وانصرف كل منهما في سبيله وكل منهما يمشي خطوة ثم يلتفت الى صاحبه.

فلما تواريا نهض حسن من بين الأعشاب مذهولاً وقال للرجل: « لقد رأيت منظراً طالماً تاقت نفسي لمشاهدته، انه منظر يخجل منه كل ضعيف النفس دنيء الطبع. ان العفة يا اخا العرب خير ما في الفضائل».

فقال الشيخ وهو ينقر بعصاه على عباءته لنفض التراب عنها: «كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول قال رسول الله - ﷺ - (من عشق فعف فمات فهو شهيد). وقال أيضاً: (عفوا تعف نساءكم)،»

فقال حسن: «صدق رسول الله، وأن بني عذرة كلهم بشهداء فقد بلغني مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكنني لم اصدق حتى رأيت ذلك رأى العين».

ثم انتبه حسن لما هو فيه من أمر جرح سليمان وضياع الجمل فقال للراعي: « اين الجمل يا أخا العرب فقد وعدتني بإحضاره».

قال: «امكث هنا حتى آتيك به». قال ذلك وانحدر في الوادي حتى توارى عن النظر، ولكن صوت الأحجار المتدحرجة تحت قدميه ما زال مسموعاً، ثم ساد السكون فجلس حسن تحت الشجرة ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان.

ولما خلا حسن إلى نفسه تحت الشجرة جالت به هواجسه في عالم الخيال فانتقل ذهنه مما شاهده في ذلك المساء إلى سمية وحاله معها. ثم إلى خادمه عبد الله وتأخره، ثم إلى سليمان وأبيه، ثم عاد إلى الجمل الهارب بكتاب خالد فرأى أنه اهمل البحث عنه بتربصه هناك لمشاهدة لقاء ذينك الحبيبين. ولكنه اعتذر بأنه إنما فعل ذلك مرغمًا، فلو أنه لم يطع الشيخ الراعي وظل في مسيره لما وجد إلى جمله سبيلاً لأنه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها.

وفيما هو كذلك وظلام المساء لا يريه على الآكام والأودية المحيطة به إلا ظلالاً ضعيفة،

سمع خربشة بين الأعشاب فوقف بغتة ثم فطن إلى أنها خربشة ضب سارح فلم يلتفت اليه. ولكنه ظل واقفاً وقد تزايد قلقه لإبطاء الراعي وهم باللحاق به ولكنه خاف أن يختلفا في الطريق.

ولما طال انتظاره من الوقوف مشى على غير هدى، واتخذ علامة علقها على الشجرة لتهديه إلى المكان من بعيد. وجعل مسيره في جهة الوادي الذي سار اليه الراعي يطلب الجمل وهو يتوقع أن يلتقي بالشيخ وهو عائد أو يسمع جعجعة الجمل عن بعد أو يعود إلى مكانه. ولذلك فإنه كان كلما مشى بضع خطوات التفت إلى الشجرة مخافة أن تتوارى عن بصره وراء بعض التلال، فمشى مسافة طويلة لم يسمع في اثنائها صوتاً ولا رأى شبحاً، ثم نسي أمر الشجرة فانحدر في الوادي وهو يتلمس الأرض ولا يرى الطريق فكانت رجله تزلق طوراً، وترتطم أصابعه طوراً من فوق النعال بأصول الأعشاب الباقية بعد المرعى، وهو بين أن يحملق نحو الوادي بعينيه أو يصيخ بأذنيه أو يتفرس في الطريق بين يديه. فلما طال به المسير ولم يهتد إلى شيء ندم لنزوله من مكانه.

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب في الوادي فالتفت إلى جهة الصوت فرأى نوراً ضئيلاً فتأثر الصوت فإذا به يتعاظم كلما اقترب من النور، فعلم أنه على مقربة من بعض القرى الكثيرة في وادي القرى منتشرة في بطنه وعلى جانبه. ولكنه استغرب النباح في الليل لعلمه ان ذلك لا يكون إلا إذا طرق الحي غاز او لص. فوقف ليستريح ويفكر في أمره فالتفت إلى ما يحيط به فإذا هو في وادٍ بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها فرأى شبحاً يعدو صاعداً من الوادي كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم انه الراعي واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه: «ما وراءك يا اخا العرب؟. أين الجمل؟».

قال: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

قال: «جاء بي قلقي على الجمل ورغبتي في التعجيل بالاياب».

قال: «وما الفائدة من انحدارك في هذا الوادي والليل دامس وانت لا تعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطرقك هذا الحي ليلاً إذ نبحتك الكلاب، لأنها لم تألفك من قبل كما ألفتني لكثرة ترددي إلى هذه القرى».

فقطع حسن كلامه قائلاً: «ما لنا ولهذا؟ قل لي أين الجمل؟»

قال: «لم اعثر عليه في المكان الذي كنت اظنه فيه، والظاهر أنه قصد ماء آخر وقد كنت ذاهباً للبحث عنه في العقيق بجوار المدينة».

فاستعاذ حسن بالله وقال: «يالله! ما هذه المصيبة؟»

فابتدره الراعي قائلاً: «لا تخف يا سيدي فلن يضيع الجمل ولو غاب عنك طويلاً فإن اهل البادية يرسلون ابلهم للمرعى وقد لا يرونها أياماً ثم تعود بنفسها أو يعود بها غلام أو فتاة. وقد كان ذلك شأننا في زمن الجاهلية فكيف ونحن الآن في ظل الإسلام، وأما أنتم معاشر أهل المدن فإذا غفل الرجل منكم عن عمامته خاف اختطافها».

فمل حسن من جدال الراعي فقال له: « ما لنا ولهذا الجدال؟. أين الجمل وكيف السبيل اليه؟».

فقال: « يغلب على ظني أنه سار إلى العقيق وهو ماء يخرج أهل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات أو أياماً في خيام يحملونها معهم، وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم».

فقطع حسن كلامه قائلاً: « ثم ماذا؟»

قال: « فالعقيق مجتمع أهل الرخاء من اليثربيين وهو يذكرني أيام الشباب، فقد كان العقيق موعدنا لنلقى نساء المدينة. لا تغضب يا سيدي إننا سائرون الآن جنوباً نحو المدينة والعقيق في طريقنا اليها».

■

استغرب حسن بعده عن المدينة شمال المكان الذي ترك سليمان وأباه فيه، فقال للشيخ: «هلم بنا». «فمشيا والراعي على شيخوخته أسرع عدواً منه لأنه تعود المشي في الوعر. أما حسن فلما صعد من الوادي والتفت إلى السماء وتبين الكواكب فعلم أنه في أواخر الليل بغت لضياع الوقت وهو لم يأت عملاً بعد، وتشاءم مما تأتى له في ذلك المساء وهو إنما أمسك عن رؤ ية حبيبته رغبة في المسير إلى مكة على عجل، فكيف يعود إلى الوراء بعد قضاء الليل في المشي والقلق؟

قضى مدة سائراً في أثر الراعي، على أرض رملية، بعضها رطب بما يرشح فيه من الماء. وفكره تائه حتى رأى نجم الصبح فعلم أن الفجر دنا ثم رأى الراعي وقف وأشار اليه قائلاً: «ألا ترى الماء أمامنا عن بعد؟».

قال: « اني ارى سطحاً لامعاً وكأني أرى فيه سماء أخرى من انعكاس انوار الكواكب».

ولما رأى الماء شعر بانشراح الصدر واستبشر ببلوغ امنيته وجعل يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعله يرى أناساً أو جمالاً فلم ير شيئاً. ثم سمع الراعي يقول: « ها اننا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه احداً سوى آثار اناس كانوا هنا ورحلوا في اوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجليك في هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر». «

قال: «دعني أسر معك».

قال: « لا. امكث هنا واغسل رجليك وسأعود اليك على عجل فإني لا أتحقق الأمر حتى

اطوف حول هذا الماء. ولا حاجة إلى مسيرك معي فقد تعبت، وان كنت في عنفوان الشباب لأن اهل المدن لا يقوون على المسير مثلنا». قال ذلك والتحف العباءة وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى، وما لبث أن سمع الشيخ يناديه فنهض وأسرع حتى أقبل عليه فإذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الأغصان وقد قبض بيده على شيء وهو يقول: «متى خرجت من المدينة؟».

قال حسن: «نحو الغروب».

قال: «هل اطعمت الجمل قبل خروجك؟».

فتحير حسن بماذا يجيب لأنه وكل امر الجمل إلى خادمه فقال: «أظن الخادم اطعمه».

فبسط الشيخ يده فإذا فيها ابعار فقال: «ان هذه الأبعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده إلى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع».

فاستغرب حسن بته في الأمر وقال: «وكيف عرفت ذلك؟».

قال: «عرفته من هذه الأوساخ، فإن فيها النوى وهو علف جمال المدينة لأن النوى كثير عندهم. ويظهر من قلة جفافها أنها وضعت من عهد قريب. ولم أر واضعها فيكون قد عاد».

فوجد حسن كلامه معقولاً ولكنه لم يقتنع بأن الجمل الذي يشير اليه هو جمله، إذ لا يبعد أن يكون جمل أناس آخرين فقال له: «وما الذي ينبئك أنه جملي وليس من جمال أناس مروا بهذا المكان الليلة؟».

فضحك الشيخ وقال: «لو كانت ابعار الجمال كثيرة لرأيناها أصنافاً وألواناً. فهي إذن لجمل واحد، وهذا الجمل لم يقم هنا إلا قليلاً. وأي جمل من جمال أهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل إلا أن يكون فاراً مثل جملك؟».

فأعجب حسن ببداهة أهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الأثر ولكنه ما زال مشككاً في أن يكون ذلك الجمل جمله فقال: «لا أرى ما يمنع بعض أهل المدينة من الخروج الليلة على جمله يلتمس بعض الأحياء فمر بالعقيق ليشرب أو يسقي جمله أو يستريح».

قال: «قد يكون ذلك، ولكن حال المكان، لا يدل عليه، لأني لا أرى على الأرض آثار آدميين».

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن أنه افحمه: «الظاهر أن الراكب لم ينزل عن جمله وإنما وقف ريثما شرب ثم ساقه».

فقال: «لا، لأن الجمل لا يستطيع الوقوف تحت هذه الأغصان المدلاة وعليه راكب لأنها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه احد».

قال حسن: «ربما برك الجمل؟».

قال: «لو فعل لشاهدنا آثار ركبه، فما الجمل الذي مر من هنا إلا جملك، وإذا صبرت

هنيهة أريتك الطريق الذي سار فيه فيهون عليك طلبه».

قال: «وكيف ذلك؟». وكان الفجر قد لاح، وتبينت الأرض جيداً فنظر حسن إلى ما حوله وراجع ما قاله الشيخ فترجح لديه قوله، وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة اهل البادية في قيافة الأثر، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فإذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال: «انظر إلى هذه الخطى فإنها آثار خفاف جمل يعدو عدواً سريعاً، يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها، ويظهر أن الجمل عاد إلى المدينة».

فالتفت حسن إلى يساره وقد بان الصبح فإذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا بد له من الذهاب اليها. فتذكر حبيبته فيها ولكنه عاد إلى التفكير في أمر الجمل فقال: «اني لأستغرب ما رأيته اليوم من جملي ولم يكن عهدي به مثل ذلك من قبل».

قال: «للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئاً ساكناً فلا تراه إلا وقد دلق لسانه وارغى وأزبد وأركن إلى الفرار كأنه أصيب بجنة، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف ورعب أو جوع. ومهما يكن من الأمر فاطلب جملك في المدينة. وأما أنا فإني استأذنك في العودة إلى ماشيتي مخافة أن يكون قد أصاب ابلى ما أصاب جملك وهي وحدها هناك ما عدا غلاماً وأمه تركتهما لحراستها».

فأثنى حسن على الشيخ وودعه وسار قاصداً المدينة وقد انهكه التعب والقلق وأحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له فعول على أن يسير تواً الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث بعد ذلك عن الجمل، ثم تذكر حديث سليمان وأبيه وما فيه من الإشارة إلى الفتك به فأحب استطلاع سر أبي سليمان قبل دخوله المدينة لئلا يكون فيه مايمنعه من دخولها، فسار يلتمس المكان الذي تركهما فيه بالأمس فاستشرف اكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئاً كالجمل البارك ثم ما لبث أن سمع جعجعة فأسرع حتى دنا من الجمل فإذا هو جمله بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وقد كسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عارياً لا رحل على ظهره ولا خطام في رأسه فشك في أن يكون جمله وظنه جملاً آخر، فتفرس فيه جيداً فلم ير فرقاً بينه وبين جمله، ثم تذكر ميسمه وهو العلامة التي يسمون بها الجمال بسمات القبائل فنظر في الميسم فإذا هو الميسم الذي يعرفه فتحقق أنه جمله وأنه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه وود لو أن الراعي معه ليهبه الجمل فينحره لأهله. ثم عاد إلى التفكير في الرحل وما كان عليه من امتعته وبينها كتاب خالد بن يزيد، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة وقال في نفسه: «لم يعد لي وطر في المدينة الآن». ووقف برهة ثم مشى إلى الجهة التي ترك فيها سليمان مطروحاً وبجانبه أبوه فرأى المكان خالياً إلا من آثار الدم على صخر منبسط، ورأى بجانب الصخر ثوباً معفراً فرفعه فإذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعاً قطعاً فاستغرب تمزقه، ثم طرح بقاياه وفكر

في أمر سليمان والكتاب فقال في نفسه: «لعل أبا سليمان عثر على الجمل وهو سائر إلى المدينة فلما رآه معطلاً حمل رحله معه على نية أن يدفعه إلي عند الملتقى». فارتاح حسن إلى هذه الفكرة وهدأ اضطرابه وترجح لديه أن أبا سليمان حمل ابنه إلى منزله في المدينة لمداواته، فعول على الذهاب اليه.

وفيما هو سائر إلى المدينة رأى غباراً يتطاير في عرض الأفق مما يلي طريق مكة، فوقف ينتظر ما يكون فإذا بثلاثة من الأبل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الأبل سوقاً عنيفاً، ثم سمع قرقعة اللجم فعلم أنها أبل البريد وكان لدواب البريد قعقعة خاصة كأن أرسانها من سلاسل الحديد، أو لعلهم كانوا يعلقون في اعناقها جلاجل أو نحوها، فمكث هنيهة ريثما مرّ البريد فعلم من لباس الرجال وهيئة الركب انهم من العراق فترجح عنده أنه بريد الحجاج بن يوسف إلى عامل المدينة.

حسن وسليمان وأبوه

سار حسن في أثر البريد قاصدا بيت سليمان من أقرب الطرق فلما وصل اليه سأل عن سليمان فعلم انه مريض فتحقق انه هناك فاستأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان راقدا وأبوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له أبو سليمان مرحبا به، وأراد سليمان النهوض فأمسكه وأجلسه وجلس على طرف الفراش بجانبه وجعل يسأله عن حاله وسليمان يحمد الله على أنه أحسن كثيرا، ويعزو الفضل في شفائه الى نجدته اياه. فقال حسن: «ما أظن المصيبة جاءتك الا بسببي».

فقال سليمان: «أشكر الله لأنه نجاك من هذا الخطر».

فتقدم أبو سليمان والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له: «اغفر زلتي يا بني، فان الله هددني بالقصاص حتى خفت فقد ابني ووحيدي، وأشكره على السلامة ولأنه أكسبني ابنا آخر».

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة، ولكنه رأى في وجهه دلائل السويداء.وانقباض النفس. فاذا ابتسم فكأنما يبتسم تكلفا، واذا ترك ساعة أو ساعات ظل صامتا لا يفوه بكلمة كأنه يفكر في مصاب محدق به..

ثم سألاه عن سبب غيابه فقص حسن عليهما الحديث مختصرا، وكان يتكلم وأبو سليمان يصغي اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعره كل انتباهه. فلما جاء على آخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل، قال: «فلما رأيت جملي بلا رحل على مقربة من المكان الذي كنا فيه ظننتكم عثرتم على الجمل ورأيتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لي عندكم».

قال أبو سليمان: «كلا يا ولدي فاننا عدنا ليلا، ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لانشغالنا بجرح أخيك سليمان، وأنت هل مررت بالمكان الذي كنا فيه ؟».

قال: «نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم، ووجدت القباء ممزقا وعليه جلط الدم فعجبت لتمزيقه».

فقال الرجل: «لا تعجب يا ولدي لتمزيقه لأنه مزق قلبي فانتقمت منه فاعذرني».

فاستغرب حسن ذلك وقال له : «بالله الا قصصت علي خبر هذا القباء ؟».

فقال له : «اعفني من خبره واقنع بما قلته لك ولو تلميحا».

قال : «وماذا قلت ؟».

قال : «ألم أقل ان هذا القباء هو الذي مزق قلبي لانه كان دليلي الى الفريسة المطلوبة فاذا هي ولدي وفلذة كبدي».

ففطن حسن لأمور كثيرة كانت موضع شكه، وتذكر انه ليس من يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عرفجة لأنه أخذه من عنده ولم يلبسه قط ، فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس، وظل صامتا برهة لا يتكلم ثم قال : «ألا تقول لي من الذي أغراك بقتلي ؟ . فاني أخشى ان أتهم أناسا أبرياء».

قال : «أمرني بذلك رجل كبير في هذه المدينة، وهو صاحب السلطان الأقوى فيها».

ففهم حسن انه يشير الى عامل المدينة طارق بن عمرو، وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من الصداقة. فترجح لديه ان لعرفجة يدا في هذه المكيدة، لكنه أسرها في نفسه واعتصم بالصبر الى أن يتم مهمته بمكة.

وأراد سليمان أن يذهب الانقباض عن صديقه فقال لأبيه : «كيف رأيت هذا الصديق يا أبي ؟».

فتنهد أبوه وحاول الابتسام وقال : «لم أكن أشك فيما قلته لي، ولكن سوء حظي ساقني الى ما ارتكبته ولكني أحمد الله على خلاصنا من هذا الخطر». ثم التفت الى حسن وقال : «اني أعتذر اليك من تعمدي قتلك على غير معرفة بك ، ولا أظنني دفعت الى ارتكاب الجريمة الا بما جنيته من الذنب برجوعي عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما ». قال ذلك وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم عاد ابو سليمان الى الكلام فقال : «كنت من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين بن علي، حتى قتل ظلما في سهل كربلاء . ولكنني لم أثبت على توبتي فانتظمت في خدمة الذين قتلوه، ولا ريب ان عملي لم يرض الحق سبحانه وتعالى، وعلي ان أكفر عن ذلك بتكريس ما بقي من حياتي لنصرة أعدائهم ، وقد علمت انك سائر الى مكة فهل تستصحبني ؟ . والا فاني هائم على وجهي في هذه الصحراء ».

فقال حسن : «اذا رافقتني فاني آنس بك وأتخذك أبا لي لان سليمان أخي، ولكن أرى ان . . .» . وأسكته الحياء.

فقال أبو سليمان : «تكلم يا بني ولا تخف فاني بمنزلة أبيك ، بل انا خادم لك ولا أستنكف من أمر أجريه في خدمتك. قل ما بدا لك».

قال حسن : «اذا كنت ترى ان تتفضل علي وتعاملني معاملة الأب لابنه فان لي عندك

طلبا استحيي أن أكلفك به».

قال : «لا تستح يا بني. قل».

قال : «أحب فتاة في هذه المدينة ، وقد خطبتها وأنا مضطر للسفر قبل العقد عليها ، ولا يخفى عليك قلب مثلي في هذه الحال».

قال: «نعم ماذا تريد مني؟ هل تريد أن أوقف نفسي لخدمتها؟»".

قال : «كلا فإنها في بيت أبيها، ولكنني قليل الثقة بمن حولها».

قال : «من هي الفتاة ومن هو أبوها ؟»".

فوجم حسن برهة ثم قال : «اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها ـ ولا أرى بدا من ذلك ـ فأخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفي».

فلم يتم حسن قوله حتى بهت ابو سليمان وازداد لونه امتقاعاً وأطرق وصارت لحيته ترقص في صدره، وكان حسن يلاحظه وقد أدرك ما جال في خاطره. وجعل أبو سليمان يهم بالكلام ثم يمسك لأنه كان مطلعا على تردد عرفجة على مجلس طارق ، وعرفجة مشهور في المدينة بخيانته وسوء نيته.

أما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلا : «لا أكلفك اطلاعي على سر، فقد فهمته وهذا يكفي. أما الفتاة فخطيبتي ولا شيء يمكن ان يثنيها عني أو يثنيني عنها. وانما أرجو ان تبحث عنها وتعرف أحوالها وهذه هي وصيتي اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه ».

فقال أبو سليمان : «أنا عند ما تريد ، وسأولي أمرها اهتمامي ، كما أهتم بولدي هذا . كن في سكينة وراحة بال».

فلما فرغ حسن من أمر سمية عاد الى التفكير في الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه أنه قد يلقى خادمه في المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم فانه يكتفي بابلاغ عبد الله بن الزبير فقد الكتاب ويرى ما يكون، فنهض مودعا . فقال له أبو سليمان : «اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذي كنا فيه امس. أخرج من باب آخر وأنا أرسل معك خادمي يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك، وسأقدم لك جملا أحسن من جملك فأنعم بالا وكن على ثقة اننا أنا وسليمان في خدمتك حتى تبلغ مرامك. ثم صاح : «يا بلال». فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح فقال له : «هيىء الجمل الأشرم، واملأ القرب ماء وأعد زاد السفر».

فذهب بلال ثم عاد وقد أعد كل شيء فقال ابو سليمان لحسن : « اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة».

فقطع حسن كلامه وقال : «فاتني ان أخبركم عن ابل البريد، فقد رأيت ثلاثة منها

دخلت المدينة في هذا الصباح وأظنها قادمة من مكة».

قال أبو سليمان : «لا يبعد انهم جاءوا لطلب نجدة أو مدد، أو بخبر فتح او شيء من ذلك، اما أنا فاني سأنتقل من هذا البيت الى سواه وأختفي يومين أو ثلاثة حتى لا يراني احد لئلا يطلبوني للمسير معهم».

ثم ودعهم حسن وركب الجمل وسار بلال في ركابه ، وبود حسن لو يعيد النظر الى سمية قبل سفره ولكنه أراد العجلة وخاف الوقوع فيما هو شر من ذلك.

سمية في منزل سكينة

فلنترك حسنا قاصدا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من أمر سمية بعد سفره، فقد تركناها عائدة الى بيت سكينة ومعها عبد الله خادم حسن يسير في خدمتها. فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية : «قد وصلت الى مأمني فانصرف ». وكانت قد استأنست به لانه ثقفي مثل ابيها فلما ودعها قالت له : «قد علمت يا عبد الله منزلة حسن مني فارعه وكن صادقا في خدمته».

فقال : «اني عبدك وعبده يا مولاتي، واني افديكما بروحي».

فاطمأنت سمية وأشارت اليه برأسها اشارة الوداع، فتحول مسرعا يلتمس باب المدينة ليلحق بسيده .

أما سمية فانها أقبلت على بيت سكينة حوالي العشاء ، فتظاهرت بأنها كانت في بعض جواتب المنزل، وسارت الى مجلسها، فرحبت بها وسألتها عن سبب تخلفها . فقالت : «كنت مشتغلة في بعض الغرف هنا». فقالت لها ليلى : «قد بحثنا عنك فلم نجدك ، وأخشى ان يكون أباك استبطأ عودتك».

قالت : «ربما استبطأني ، ولكنني هنا في مأمن من غضبه ، ومتى استبطأني بعث في أثري » .

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك أمسكت بيدها وقربتها اليها حتى أقعدتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها : «أهلا بك يا سمية انك من أعز الأحباء» . وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها .

فقالت سمية : «لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سبط الرسول ، ان اقامتك بهذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا » .

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة ، وقد مدت الاسمطة فقمن للعشاء وأما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سكوت أبيها عنها الى ذلك الحين. ثم خطر لها انه غائب عن البيت ويحسبها فيه، فرأت أن تستأذن سكينة في العودة الى البيت فأذنت لها، وبعثت معها بعض الجواري ليوصلنها اليه.

ولما وصلت سمية الى باب البيت قرعته بطريقة يعرفها الخدم فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهي تقول : «لقد أبطأت علينا الليلة وشغلت بالنا».

وكانت هذه الجارية حبشية الأصل اسمهـا امة الله، تحب سمية كثيرا ، كما ان سمية كانت تستأنس بها وتكرمها فلما أبطأ قدومها في تلك الليلة شغل بال الجارية ولم تستطع رقادا ، حتى طرقت سمية الباب ففتحت لها، وترامت عليها وقبلتها ورحبت بها، فقالت لهاسمية: «ألم يأت أبي ؟».

قالت : «جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعلومة وأقفل بابها، وما زال هناك ولا يدري احد ماذا يعمل لأنه انار السراج وحمله بيده الى الغرفة على عادته ».

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها لتوهم أباها اذا رآها انها في البيت من مدة طويلة . ولم تستغرب مكثه في تلك الحجرة طويلا لانه كثيرا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون ما في تلك المحفة المخزونة هناك. ولولا خوفهم من غضبه واستبداده لتوصلوا الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوته وشدة وطأته.

ثم رأت سمية ان تلجأ الى فراشها قبل خروج أبيها من مخبئه مخافة ان يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما أساء الظن بها، فجلست على فراشها ، ودعت امة الله لتمشط لها شعرها قبل النوم فجثت الجارية خلفها وجعلت تسرح الشعر وتمشطه ووجه سمية الى باحة الدار، وكانت سمية ترتاح الى مكاشفة أمة الله ببعض شؤونها الخاصة فقالت لها : «هل شغل بالكم غيابي الليلة ؟».

قالت : «نعم يا مولاتي ، لأنك قلما تطيلين الغياب، ولا سيما ان عبد الله جاء للسؤال عنك».

قالت : « وأي عبد الله ؟».

قالت : «الرجل الذي جاء صباح اليوم ».

فعلمت سمية انه عبد الله خادم حسن، فبغتت لعلمها انه فارقها ليلحق بسيده على عجل فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها : «متى جاء ؟».

قالت : «جاء قبل وصولك بقليل».

قالت : «وهل جاء وحده ؟».

قالت : «لم أر معه أحدا».

ففكرت سمية في الأمر ، فوجدت انه جاء بعد ان فارقها بساعة أو ساعتين ، فتبادر الى ذهنها انه لم يأت الا لغرض أراده حسن منها ، أو لشر أصابه، فتوالت عليها الهواجس واستغرقت في التفكير، وعادت الجارية الى تمشيطها وهي في غفلة عن كل ذلك.

وبينما سمية غارقة في لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى باحة الدار فرأت فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلمت ان أباها خرج من الحجرة السرية. ثم اختفى النوروسمعت تصفيقا فعلمت ان أباها يدعو الخادم فخافت ان يكون عازما على استدعائها، فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية: «لم يعد لي طاقة بالجلوس فقد أخذ مني النعاس مأخذا عظيما فاتركيني، واذا سأل عني أبي فأخبريه بأني نائمة منذ حين». ففهمت الجارية غرضها فضحكت وقالت لها: «لا تخافي». وتمددت سمية في فراشها وتظاهرت بأنها استغرقت في النوم، وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها، وسمعتها تذكر له انها نائمة فانصرف.

وأصبحت في اليوم التالي وهي ما زالت في حاجة الى النوم، فظلت في الفراش حتى الضحى، ثم جاءتها جاريتها بماء للغسل وبطعام، فسألتها عن أبيها فقالت: «أفقت قبيل الصبح على قرع الباب، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدي على عجل، فخرج وهو لم يتم لف عمامته».

فأطرقت سمية وفكرت في الأمر، فحدثتها نفسها بأن لهذه الدعوة علاقة بخطيبها. ولما تذكرت سوء قصد أبيها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها أمس، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما أصاب حسنا ـ وذلك شأن المحب البعيد عن حبيبه فانه لا يكاد يطمئن قلبه عليه واذا سمع احدا يذكره تبادر الى ذهنه انه في خطر وقد يفسر الاشارات والرموز والحوادث بما يؤكد ذلك ـ فكيف بسمية وهي تعلم ما ينويه ابوها لخطيبها؟. فلم تتناول من الطعام الا قليلا، ولبثت جالسة تفكر في سبب خروج أبيها وتخاف ان يكون فيه ما يسوء خطيبها..

■

قضت سمية أكثر النهار في قلق واضطراب، تارة تمشي في الدار، وآونة تخرج الى البستان، وهي تتوقع ان ترى عبد الله آتيا او تسمع خبرا. ثم سمعت أذان العصر فالتفتت الى مصدره جهة باب البيت فرأت أباها فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منه. فدنا منها وابتسم وناداها اليه فتبعته وهي ما زالت في اضطراب، ولكنها تظاهرت بارتياح حتى أقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب ينزع نعاله وقال: «كيف قضيت يومك أمس عند سكينة؟».

قالت وهي تتبعه الى وسادته التي تعود الجلوس عليها: «قضيته مسرورة، وعدت وأنت في الحجرة فنمت ونهضت في هذا الصباح، فعلمت انك خرجت مبكرا فشغل بالي».

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامة متكلفة فلما جلست قربها منه وضمها وقبلها فأحست ببرد شفتيه واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ما كانت فيه من التهيج العصبي الناتج عن القلق، وقبلت يده فاذا هي أبرد من شفتيه.

وتوقعت ان تسمع منه شيئا بعد هذا التملق فاذا هو يقول لها: «أظنك مللت طول المكث في هذه المدينة؟».

قالت : «اذا كنت انت في خير وسعادة فكل حال ترضيني».

فأعجبه قولها وألقى يده على كتفها وجعل يلاعب شعرها بين أنامله ثم قال : «بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد ، هذا هو البر الذي كنت أرجوه منك. فالحمد لله الذي أذهب ما كان يخامر ذهنك ، وعدت الى ما هو جدير بأمثالك من النزول على حكم آبائهن».

فأحست سمية من هذا التعريض كأن صخرة وقعت على رأسها، وأسرع خفقان قلبها . ولو انتبه أبوها وهي مستلقية على صدره لسمع دقات قلبها ولأدرك اضطرابها. أو لعله أدرك وتجاهل خبثا ورياء. ثم قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : «سنذهب غدا لترويح النفس في العقيق فانه متنزه جميل، فهل يسرك ان نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضي يومنا هناك ؟».

فعجبت سمية من عناية أبيها بأمر نزهتها والترويح عنها، ولا سيما انه كان لا يخاطبها بالحسنى أو يلاطفها الا اذا كان له مأرب من وراء ذلك . فأصبحت لا تسمع منه مثل هذه الملاطفة الا توقعت شرا، ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراته فقالت : «أشكرك يا أبي على هذه العناية».

فقطع كلامها وقال : «لا شكر على واجب، فاني أبوك وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خياما وطعاما ويسيروا أمامنا الى العقيق، قبل الفجر، ثم نركب أنا وأنت عند طلوع الشمس، ونقضي يومنا في العقيق، فقد مللنا المدينة وأسواقها ونخيلها». قال ذلك بنغمة

الاب الحنون ، فلم يسع سمية الا مجاراته، على انها كانت اشد حاجة منه الى النزهة ، وخطر لها انها ربما استطاعت في أثناء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله أو تسمع خبرا عنه أو عن حسن. فأثنت على أبيها وقبلت يده، فقبلها ثم صفق فجاء عبد أسود كان قد فوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيبا على أهل بيته. وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى افطس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، ويندر ان يبتسم فاذا فعل فانه يكشر عن أنيابه . فلما وقف بين يديه قال له : «يا قنبر، اننا عازمون على الخروج في صباح الغد الى العقيق فأعد ما نحتاج اليه من الخيام والاطعمة ، وهيىء الهودج لسمية، ثم اسبقنا مع الخدم عند الفجر ، وسنلحق بكم بعد ذلك».

قال : «الامر لمولاي». وخرج.

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية ، واتجهت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها

امة الله ان تتهيأ لمرافقتها في صباح الغد . .

■

باتت سمية ليلتها والاحلام المزعجة تنتابها، وتريها حسنا في خطر، ورأت مناظر مخيفة أخرى ، فنهضت وهي في اضطراب شديد . فاذا أبوها قد خرج وتهيأ للرحيل ، وجاءتها الجارية فمشطتها وألبستها ثيابها. ثم ركبت معها الهودج ، وركب ابوها بغلة ، وساروا وقد أمسك بخطام الجمل احد الخدم . . .

وجعلت سمية تطل من خلال الستور على المارة في الطرق وتتفرس فيهم ، فاستغربت امة الله ذلك منها لعلمها بأدبها وحشمتها . وزاد في استغرابها شدة ما لاحظت في وجهها من القلق. فلمــا خرجوا من باب المدينة بالغت سمية في التطلع نحو الطريق الذي يؤدي الى مكة لعلها ترى اثرا أو تستطلع خبرا فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا ، وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، فذهلت ولم تفهم امر هذا المعسكر، ولم تر بدا من أن تسأل أباها فأخرجت رأسها من بين الستور لتبحث عنه فاذا هو قد اركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام ان يظل في مسيره فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد في عينيها .

وفيما هي تتطلع سمعت جعجعة جمل يتألم فالتفتت فرأت جمل حسن الذي ذكرنا أمره ولم تكن قد رأته الا في أثناء مقابلتها حسنا في المساء، ولكن صورته انطبعت على ذهنها . فلما رأته خفق قلبها كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب، فأوقفت الهودج عنده ونظرت اليه فرجحت انه جمل حسن وجعلت تفكر في الأمر ، فخيل اليها ان حسنا قتل وقد اخذ قاتلوه رحل الجمل وخطامه وتركوه. فلما تصورت ذلك تساقطت دموعها وخفق قلبها جزعاً واشفاقاً.

وكانت امة الله تلاحظ قلق سيدتها ولكنها لم تجرؤ على مخاطبتها في هذا الشأن الا لما رأت دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم: «ما بالك يا سيدي تبكين لا أراك الله سوءاً ؟ ».

فلما سمعت سمية سؤال الجارية أجهشت في البكاء حتى علا صوتها، فأمسكت بها أمة الله وقبلت يدها وقالت لها : «بالله كفي عن البكاء وأخبريني ما سبب ذلك فلعلني انفعك في شيء».

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها، ثم التفتت الى خارج الهودج فلم تجد أباها عاد، ولا رأت أحدا يسمعها، فقصت على جاريتها الحديث مختصرا ، وأطلعتها على مكنون قلبها .

فشاركتها الجارية البكاء ثم قالت لها : «انك لم تتحققي ان هذا الجمل جمل حسن، وهبي انه جمله فليس معنى هذا انه أصيب بسوء، ولا أحسب هذا الجمل الا لبعض أهل هذا المعسكر انكسر فتركوه، ومهما يكن من شيء فليس هناك ما ندعو الى الاخذ بالظن والتوهم».

فارتاحت سمية لهذا التعليل، ولكنها تذكرت عبد الله ورجوعه الى منزلها في تلك الليلة فقالت : «ولكن ما سبب رجوع خادمه الينا ؟».

قالت الجارية : «قد يكون جاءك برسالة من حسن فلما لم يجدك عاد اليه بها وسافر معه، ولولا ذلك لرأيته أمس. وقد مضى يوم ونحن الآن في ضحى اليوم الثاني ولم نره».

فقطعت كلامها وقالت : «اتظنينه اذا علم بسوء أصاب حسنا، ينقل ذلك الخبر الي ؟».

قالت : «دعي عنك هذه الافكار وتوكلي على الله».

وفيما هما في الحديث سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان أبا سمية قد عاد، وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فأطلت عليه فقال لها : «لعلي غبت عنك طويلا ؟».

قالت : «نعم، وقد رأينا خياما وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب وجودها».

فأجابها وهو يحاول اصلاح الرسن في رأس البغلة: «ان هذا معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وجنده قاصدا مكة».

قالت : «ولماذا ؟».

قال : «جاء بريد الحجاج بن يوسف امس يستقدم طارقا ورجاله مددا له في حصار مكة وعما قليل يسافرون». قال ذلك وساق بغلته متظاهرا بأنها هي التي أسرعت من تلقاء نفسها ، فانقطع الحديث، وسرت سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير في حسن لعلها تلتمس تعليلاً يريح بالها. والمرء ميال الى التماس مثل ذلك التعليل، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك. فبعضهم اذا وقع في مصيبة هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة فيجعل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ومنهم من يزيده قلقا ولكنه لا يلبث وان طال قلقه ان يتوصل الى حل يتوكأ عليه ريثما يرى ما يأتي به القدر.

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ الخروج من المدينة، فظلت سمية تسرح نظرها فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء وغابات النخيل ، وهي كأنها لا ترى شيئا لاستغراقها في عالم الخيال ، فلم تنتبه الا على رائحة الشواء ، فالتفتت فاذا هي على مقربة من ثلاث خيام : اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة. فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق ، وكانت تعرفه فتفرست فيما حولها فاذا هي ما زالت على مقربة من المدينة وخيام المعسكر ظاهرة ، وتفرست في الخيام فأدركت انها خيامهم، فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليه اهمية اذ لم يكن لها رغبة في العقيق أو غيره.

وجاء الخدم فأناخوا الهودج بقرب الخيمة المنفردة فنزلت سمية وجاريتها ودخلتا الخيمة، ثم رأت سمية أباها واقفا مع عبده على انفراد ، وكانت تكره هذا العبد كرها شديدالغلظ طبعه وفظاعة خلقته، فاستعاذت من شرهما بالله.

القتل أو الزواج بالحجاج

عادت سمية الى هواجسها بعد ان دخلت الخيمة، فأخذت تفكر في حسن وجمله ، وتصورت وقوع ما تخشاه عليه من القتل فازدادبلبالها . ثم خرجت امة الله لمساعدة بقية الخدم في اعداد الاطعمة وظلت سمية في الخيمة وحدها .

وفيما هي على تلك الحال سمعت سعال أبيها ، ثم رأته والعبد قنبر قادمين نحو خيمتها فاستعاذت بالله من شر ذلك القدوم ، ثم رأت العبد يبطىء بينما أسرع أبوهاحتى وصل الى الخيمة فنهضت للقائه ، فقال لها : «كيف رأيت هذا النهار ؟ انه نهار جميل أليس كذلك ؟» .

فتظاهرت بالابتسام وقالت : «انه نهار جميل، ولكنني سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق ، وأرانا ما زلنا بباب المدينة ! » .

قال : «ان العقيق بعيد فأحببت أن نستريح قليلا ثم نستأنف المسير الى العقيق . وما أريد الا ان تكوني مسرورة فرحة وألا أراك منقبضة النفس وقد تهيأت لك أسباب السرور وانك لتعلمين حبي لك ، واني انقطعت عن العالم لأجلك . . ولا أدخر جهدا في سبيل راحتك وسعادتك» .

فلما رأت مبالغته في التلطف خافت ما وراء ذلك وظلت ساكتة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال : «ولقد سرني منك انصياعك الى مشورة أبيك في شأن ذلك الشاب ، ورجوعك الى ما هو جدير بأمثالك . ويسرني أيضا ان أبشرك بسعادة قد وفقك الله اليها ، ويندر ان تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يغبطنك عليها» .

فازداد قلقها وأحست من وراء ذلك الكلام نذير سوء يزيد في اضطرابها ، فظلت ساكتة وقلبها يخفق ، ومالت الى استطلاع ما في نفس أبيها ولكنها خافت ان يكون في علمها بذلك ما يسوؤها ، فلبثت صامتة لا تدري ما تقول . وكان هو ينظر الى وجهها خلسة ويتشاغل بالعبث بلحيته . فتوقع ان يسمع منها استفهاما ، فلما بقيت صامتة دنا منها وهي مستندة الى عمود الخيمة ووقف امامها وأسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها . فاضطربت وازداد قلقها فلم تعد تصبر على السكوت ، ثم اذا هو يقول لها : «لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة

التي أعددتها لك، ألا يسرك آن تعلمي بما يبذله أبوك في سبيلك ؟ انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش». قال ذلك وأشار الى المعسكر .

فلما سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتها لاحد كبار رجال الجيش، فتحققت سوء ما أضمره لها بالأمس وأنها مقبلة على خطر شديد، فارتبكت وحارت في أمرها ولم تدر بماذا تجيب ولكن الاضطراب بدا على وجهها، ولو انه تفرس في قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكي خفقان قلبها ـ وما ارتعاشهما الا من رجع ذلك الخفقان واحمرت وجنتاها فتشاغلت باصلاح دمالجها في معصميها والنظر اليها في حين أنها لم تكن ترى شيئا لأن الدمع غشى بصرها ثم تساقط كاللؤلؤ على معصميها . فلما رآها تبكي تحقق انها لا تزال عالقة القلب بحسن ، فأراد ان يقطع أملها منه فقال لها : «ما بالك لا تجيبين ؟ . ألم يعجبك ما دبرته لك من أسباب السعادة؟ أم لم تفهمي مغزى كلامي؟ انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند، وجند بني أمية المحاصرين مكة الآن واذا أشكل عليك فهم مرادي فاعلمي أنك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير امراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان، وهو من ثقيف مثلنا، وله ما لا أزيدك بيانا عنه من علو الشأن».

فلما سمعت تصريحه لم تعد تتمالك نفسها، فغطت وجهها بكمها وأسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء أو التنهد حتى كادت تختنق وهي لا تدري بماذا تجيب، مخافة ان يفتك بها، فلم تر سبيلا غير البكاء. فلما رآها تبكي أمسك يدها وأبعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهي تبالغ في الاطراق فقال لها : «أحسب صورة ذلك الغلام في ذهنك ، مع أنه قد مضى وانتهى أمره فلم يبق لك سبيل اليه . فاذا كان في قلبك بقية أمل فيه فانزعيها واطرحيها جانبا».

فأجفلت سمية، ورفعت رأسها ونظرت الى أبيها وعيناها تقطران دمعا وكأنها في شك من قوله، فابتدرها قائلا : «صدقيني انه لم يعد لك سبيل الى حسن، ولا سبيل له اليك أيضا، لأن امره قد انقضى وأصبح في عداد الاموات».

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من في الخيام، ولطمت وجهها وقالت : «حسن مات ؟ مات ؟ لا . لا . انه لم يمت، انه حي». قالت ذلك واستغرقت في البكاء، وجلست على حصير من سعف النخل كانوا قد فرشوه في أرض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها وأطلقت لدموعها العنان وأبوها ما زال واقفا وقد بغت لما رآه منها، على انه قال لنفسه : «انها لا تلبث ان تفرغ من البكاء، فمتى تحققت موت حسن عادت الى رأيي». فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها، ثم عاد فقال لها : «أراك كأنك لم تصدقي قولي مع انك تعلمين اني لم أكذبك قط. صدقيني أن حسنا قتل في أثناء خروجه من المدينة فلا سبيل الى

رجوعه. أم تريدين أن تقتلي نفسك من أجله ؟ ».

فصاحت مولولة وقالت : «نعم أقتل نفسي ، ولا غرض لي في الحياة بعدَه. لقد قتلتموه ظلما وغدرا ! . ويلك يا ظالم ! . كيف قتلته ؟ . اقتلني معه . . اقتلني !». قالت ذلك وعادت الى البكاء، فلما رأى عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها : «انا لم أقتله ولكنه قتل بذنبه. ولا فائدة من البكاء عليه، فاشكري الله على انه مات قبل ان يقترن بك، والا ما وجدت حظوة في عيني الحجاج».

فقطعت كلامه وقالت : «ما لي وللحجاج ؟ اني لا أريد غير حسن. حسن خطيبي . هو وحده حبيبي حيا أو ميتا». ثم أجفلت وقالت:«لا لا ، لم يمت حسن، بل هو حي وأيدي الظلمة اللئام تقصر عنه».

فقال عرفجة : «ألا تزالين تنكرين قتله ؟ هل أريك جثته لكي تصدقي ؟». فوثبت سمية من مجلسها وقالت : «لا . لا . لا . تريني اياه ميتا . ويلاه ! . قتل حسن. قتلته انت يا ظالم ! . فاقتلني وأرح نفسك مني وأرحني من الحياة. أقتلني كما قتلت رجلا انقذك وأنقذ اهل بيتك من القتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم». قالت ذلك وقد أحست بقوة عجيبة ويئست من الحياة. فلما سمع عرفجة تقريعها صاح بها : «اقصري يا فاجرة، أبمثل هذا الكلام تخاطبين أباك ؟. والله لولا حرمة البنوة ولولا ان يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه. . . ولكني أعاملك معاملة صبية حمقاء ، وسأصبر عليك قليلا فاذا ابيت الا ما بدا من وقاحتك فاني قاتلك بهذا الخنجر !».

قال ذلك واستل من منطقته خنجرا لمع نصله كالبرق فلما رأت النصل تعرضت له وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول : «اضرب . أغمد خنجرك في هذا القلب، اطعن ، أتخوفني بالموت ؟. ان الموت احب اليَّ من الحياة».

فلما رأى منها ذلك العناد صاح قائلا : «أهذه نتيجة تعبي في تربيتك يا فاجرة؟ لقد حل لي قتلك، ولكني لا ألوث يدي بدمك وسترين قبل موتك جميع أصناف العذاب». ثم صاح : «قنبر». فأقبل ذلك العبد بأسرع من لمح البصر كأنه كان في جيب عرفجة وأخرجه بيده، وقال: «لبيك يا مولاي». فقال له: «شد يدي هذه الخائنة بالأمراس وقيد رجليها بالحبال وسأريها عاقبة العناد».

فلما رأت سمية قنبر مقبلا نحوها وثبت من مقعدها وصاحت به : «اذهب يا عبد السوء لا تدن مني. اغرب من وجهي، لا تدن مني. اذهب قبح الله وجهك ». قالت ذلك وهي لا تعي ما تقول.

أما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعده لمثل هذا الغرض ، وهجم عليها وهو لا يبالي

صياحها فقبض على يدها وهي تحاول التخلص منه، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل أشد الرجال ونسيت حزنها، ودفعته عنها وهو يحاول اخضاعها بلا عنف، فلما رآها تدفعه وتقاومه عزم على استعمال العنف فصاح فيها صيحة دوت دويا عظيما وجذبها من يدها فلطم رأسها عمود الخيمة، فوقعت مغشيا عليها، فأخذ في شد وثاقها غير مكترث لحالها.

وكان الخدم قد سمعوا صياح سمية، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب من الخيمة الا أمة الله جاريتها فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تسترق السمع. فلما رأت هجوم قنبر على سيدتها علمت أنه لن يحجم عن قتلها، ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت ان يكون قد أصاب سمية سوء، فلم تر سبيلا الى نجدتها الا بالحيلة ، فأسرعت الى عرفجة وترامت على قدميه وقبلتهما وقالت : «بالله أشفقت على سيدتي وأغضيت عن جرأتها وأنا أضمن لك كل ما تريده منها». .

وكان عرفجة يعامل سمية بذلك العنف لكي يحملها على قبول الزواج بالحجاج ، لأنه يرجو من وراء ذلك منفعة كبرى لنفسه. وقد ذكرنا ما فطر عليه من حب الذات والطمع مع سوء النية، وقد بلغ منه الطمع حدا هون عليه تقديم ابنته ضحية على مذبح أغراضه، ومات ضميره فلم يعد يهمه ما يرتكبه في سبيل بلوغ مقاصده. وكان يعلم ان الحجاج يرغب في الزواج بسمية ويبذل لها مهراً كبيراً، ولكنه كان يخاف ان تشكوه لعبد الملك بن مروان بوساطة سكينة بنت الحسين أو غيرها من أهل الوجاهة والنسب في المدينة. فلما اطمأن الى مقتل حسن أخبر طارقا بن عمرو أمير المدينة بأن مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف وانه يعلم برغبته فيها. وكان طارق ايضا مثل عرفجة قسوة وطمعا ولا سبيل له الى غرضه الا اذا تقرب الى الحجاج بما يرضيه، فرأى ان يتقرب اليه بسمية فيخطبها له ويحملها اليه. فوافق عرفجة وساعده على التخلص من حسن ودفع اليه بعض مهر سمية ، على ان يأخذ بقية المهر بعد وصولها الى الحجاج بالقرب من مكة.

وكان عرفجة يعلم ميل ابنته الى حسن، ونفورها من الحجاج وغيره، ويتوقع اباءها فهيأ الأسباب لاقناعها بأية وسيلة، وتواعد مع طارق على ان يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج مكرهة ولم يكن هو ينوي الذهاب معها لغرض له بالمدينة يتعلق بتلك المحفة السرية، فأراد اقناعها خارج المدينة وارسالها توا الى مكة مخافة ان تفر الى سكينة وتلتجىء الى بيتها في المدينة فتحميها أو تساعدها في ابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج. اما بعد ان تسير الى مكة

ويتزوجها الحجاج فلا يعود هناك محل للشكوى. ولا يهمه ان تشكو سمية اذ يكون قد نال بغيته، ولذلك أوصى طارقا بأن يعقد الحجاج قرانه بها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل أمل في النجاة . ثم احتال في اخراجها الى المعسكر كما تقدم. فلما رأى نفورها مما عرضه عليها من أمر الحجاج، أصدر أمره الى قنبر بشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها.

فلما لقيته امة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها، نادى عبده فخرج ، وأمر امة الله فدخلت الخيمة وحدها، فرأت سيدتها مغمى عليها فبادرت الى ركوة من جلد فيها ماء فرشت سمية به حتى افاقت، وأخذت في حل وثاقها . فلما رأت سمية جاريتها فوق رأسها تقبلها وتحاول انعاشها، ارتدت روحها اليها، وسمعت أمة الله تقول لها بصوت منخفض : «ماذا فعلت بنفسك يا سيدتي ؟ ما هذا الذي أرى ؟».

فعادت سمية الى البكاء وقالت : «أتسأليني يا أمة الله عن ما ترينه، لقد مات حسن قتله الظالمون قبحهم الله».

فقطعت امة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست في أذنها وقالت : «اخفضي صوتك لنتدبر الامر بالحكمة لأن العنف لا يجدي».

قالت سمية : «دعيني يا أمة الله . فاني لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبي ومنية فؤادي حسن. لقد قتلوه لعنهم الله ! . ليتهم قتلوني عوضا عنه».

فتقطع قلب امة الله حزنا على سيدتها، ولكنها كانت عاقلة حكيمة صاحبة دهاء، فتجلدت وقالت : «من قال لك انهم قتلوه ؟».

قالت : «أتسأليني ؟ . اما رأينا معا جمله مكسورا مهجورا ؟. وهبى ان ذلك لم يكن يدل على قتله فما قولك وقد اخبرني بقتله ابي الظالم الخائن، وعرض علي ان يريني جثته رأي العين ؟. هل بعد ذلك من شك؟ وهل تلومينني اذا تدبت حياتي ونحت على شبابي؟ . وهل ترين سبيلا الى راحتي غير الموت ؟ .».

فقالت الجارية : « ان أمر القتل لا يمكن ان نعده يقينا حتى الآن ، وليس يخفى عليك رغبة أبيك في تزويجك بالحجاج ، فلعله ادعى ان حسنا قتل لكي يحول قلبك عنه، ومع ذلك فان قتلك نفسك أمر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد ان تتيقني انهم قتلوا حبيبك . فعليك ان تصبري ، ثم اذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ورأيت الحجاج أوشك ان يبلغ مرامه منك، فليس اسهل من أن تقتلي نفسك بتجرع السم قبل وصوله اليك».

قالت : «ومن أين اتي بالسم ؟».

قالت : «انا آتيك به، فاشترطي على أبيك ان أكون في خدمتك، وأنا أهيىء لك السم، ومتى تحققت انقطاع الأمل ، أسعفتك به، وتجرعت منه معك، أما الآن فدعي العناد

وتظاهري بالرضا، ولا يبعد ان يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر، او قبل وصولنا الى مكة، او لعلنا نجد حسنا في الطريق فتذهبين اليه. وليس يليق بك ان تطلقي لنفسك عنان اليأس، اذ ماذا يكون الشأن اذا قتلت نفسك وكان حسن لا يزال حيا ؟».

فلما سمعت سمية كلام أمة الله أحست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليهاالآمال. والانسان سريع الرجوع الى الأمل لأن طبيعة الوجود تبعده عن اليأس، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حبا في البقاء، ويندر ان يرتكب احد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة والتبصر. وما لبثت سمية ان استحسنت رأي جاريتها فقالت لها : «افعلي ما بدا لك، فأنت تعرفين ما في قلبي ، فعسى ان يأتيني الله بالفرج على يدك».

فسرت الجارية لنجاحها في اقناع سيدتها ، ولكنها شعرت بهول الموقف ، وكانت، ترجح موت حسن. على انها عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدها وكان واقفا مع عبده تحت نخلة، فلما رآها أومأ اليها ان تدنو منه. فمشت منحرفة عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به. فمشى وحده حتى التقيا. فقالت : «اني رأيت سمية مطيعة لك في كل ما تريد ، لكنها استوحشت معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها أو يكلمها. ولا يخفى على مولاي ان من كان في حال سمية لا يؤخذ بالعنف، وقد خاطبتها الآن باللين فرأيتها لانت ولا بد من جلسة أخرى أتمم بها المراد. فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فدعني أكن في خدمتها حتى نأتي الحجاج ولك علي كل ما يسرك.

فاطمأن بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها، وأطاع أمة الله في ارسالها معها وقال لها : «لا بد من ذهابها الآن الى خيمة اعدوها لها في معسكرهم ولا آمن ان تسير وحدها، فاذهبي انت معها وأكدي لها اني لم افعل ما فعلته الا رغبة في راحتها».

فقبلت امة الله يده وقالت : «بارك الله فيك ، ولكن سمية تحتاج الى احضار ثيابها وأدواتها».

فقطع عرفجة كلامها وقال : «كل شيء معد لها في خيمتها بالمعسكر وما عليها الا الرجوع اليه».

فقالت امة الله : «أدخل الآن عليها في الخيمة، وكلمها كلاما لينا». قالت ذلك ومشت فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة باكية، فدنا منها وأمسك بيدها وقال : «لقد ساءني ما ألجأتني اليه من الكلام الجافي، ولكني علمت من أمة الله انك فعلت ذلك بالرغم منك، فانهضي وسيري معها الى خيمتك في المعسكر، وقد أوصيتها بأن تكون في خدمتك».

فنهضت سمية مطرقة ، فأسرعت امة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية وهي

تقول : «قبلي يد أبيك ليتم رضاؤه عنك». فقبلتها. وكان الهودج لا يزال معدا فقبلها وأركبها، وأمة الله معها، وركب هو بغلته وسار أمامها حتى أوصلها الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند. فتسلمه العريف وسار معهم الى خيمة في بعض اطراف المعسكر. .

■

كانت سمية في أثناء الطريق غارقة في هواجسها وقد زال أثر كلام امة الله في نفسها. ولما مرت بالمكان الذي كان الجمل المكسور فيه رأت بعض العبيد قد نحروه وأخذوافي سلخ جلده، فتصورت انهم قتلوا حسنا ونحروا جمله، وعظم عليها الأمر ولكنها تجلدت، وكانت امة الله تراقب حركاتها خلسة. وبعد هنيهة وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية انها وقعت في الشباك وعز عليها ان تزف الى رجل فظ غليظ القلب بدلا من حبيبها، فاستوحشت وزاد قلقها - والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها في أوائل أيامها الا اذا كان زواجها عن غرام متبادل فكيف بسمية وهي ترجح قتل حبيبها ظلما، وترى ان أباها قد باعها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدته وبأن أمره نافذ لامرد له؟.

فلما وصل بعيرها الى الخيمة المعدة لها أناخوه وأنزلوها وأمة الله معها، ثم دخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها. وجلست امة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها، وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال وهي مستغرقة في الهموم. وكان أشد ما شغل ذهنها ان رأت كلبا ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه فيقذفها ثم يعدو في أثرها عدوه الى فريسة، وتلك عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة ثم اتفق ان قذف الكلب تلك الخرقة فوقعت بين يديها، فما كاد بصرها يقع عليها حتى أجفلت وخفق قلبها ومدت يدها اليها ففر الكلب من أمامها.

فأمسكت الخرقة بأنملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هي ملوثة بالدم. وما لبثت ان قلبتها وصاحت : «ويلاه هذا هو القباء. هذا قباء ابي قتل حسنا به!».

فتناولته امة الله من يدها وقد عرفته ولكنها راحت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت : «كيف عرفت انه قباؤه والأقبية تتشابه؟».

فقطعت سمية كلامها وقالت : «قد عرفته من هذا الوشي على هذا الكم فاني طرزته بيدي وأنا اعلم الناس برسمه». قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جوابا من أمة الله وأخذت تبكي وتقول : «قتلوه. لم يبق عندي شك في قتله».

فقطعت أمة الله كلامها وقالت: «وما علاقة هذا القباء بقتله؟».

قالت : «الا تتذكرين ان أبي أهداه اليه يوم عزمه على السفر، وألح عليه ان يلبسه للوقاية

من البرد؟ ويل له من مشهد يوم عظيم . لقد البسه القباء وأوعز الى أحد من صنائعه ان يقتله وكأنه اتخذ القباء دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه ، وهذه هي بقية القباء وعليها الدم . فهل من بعد هذا شك في انهم قتلوه ؟ . وما العمل ؟ كيف اسلم نفسي الى قوم قتلوا حبيبي ؟». قالت ذلك وغصت بريقها .

فقالت أمة الله : «سلمي أمرك الى الله ولا تيأسي من رحمته . واعلمي ان ما يقدره الله واقع . فاصبري والله مع الصابرين».

فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والمرء قبل وقوع المصيبة يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها، وقد يتوهم ذلك ايضا أهله وذووه، ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وأمثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم. فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققته من مقتل حبيبها .

وفي أصيل ذلك اليوم نودي الجند : «الخيل الخيل». فركبوا بعد ان قوضوا الخيام، وساروا والفرسان في مقدمتهم وأصحاب الرايات بينهم وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بزعمرو، وكلهم بلباس أهل البادية الا هو فانه لبس درعا فارسية كان قد جاء بها من العراق .

أما سمية فحملوها على هودج ومعها خادمتها، وكان يقود الجمل عبد، ويسوقه عبد، والى كل من الجانبين حارس على هجين . وكان طارق يتردد الى الهودج يتعهده ويسأل أهله هل يحتاجون الى شيء، ثم يركض فرسه الى أطراف الجند يتفقده ويدير شؤونه.

■

فلنترك سمية في هودجها تفكر في مصيرها ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعا من بيت سكينة بعد ان أوصل سمية اليه . ثم اخبرت امة الله سمية انه جاء الى المنزل للسؤال عنها فلم يجدها فرجع على أعقابه .

وكان عبد الله لما رجع من بيت سكينة قد أسرع لملاقاة سيده خارج باب المدينة ، وهو قلق لما سمعه من حديث سمية مع حسن في تلك الليلة . وتصور ما يحدق بسيده من الاخطار فسار وهو يفكر في الامر، ونسي نفسه فأخطأ الطريق وخرج من غير الباب الذي خرج منه حسن، ثم سار من طريق آخر يؤدي الى جهة اخرى . وكثيرا ما يتفق ذلك في مثل هذه الحال فيتجه الرجل شرقا وهو يرى انه يسير غربا. وبعد ان سار ساعة وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، وقف ونظر الى ما حوله فاذا هو بين النخيل لا يتبين الطريق ولا يدري اين هو، ولكنه لم يكن له علم بطريقة الاستدلال بالكواكب، فحول سيره الى جهة أخرى ، ولكنه لم يصل الى المكان المقصود ، على انه كان كلما بعد عن المدينة استدل عليها ببعض ما يبدو فيها

من الانوار فيرجع الى جوارها . وحدثته نفسه بدخولها ولكنه خاف ان يكون سيده في انتظاره ببعض ضواحيها، ثم بدا له ان سيده ربما كان قد عاد الى بيت سمية لسبب ما، فرجع الى المدينة وجاء منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم، فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته في هذا الاضطراب.

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم فولى وجهه شطر جهة الصوت، وقد خيل اليه انه جمل سيده، فاستأنس به، وأخذ ينادي الجمل بما تعود ان يناديه به من الاسماء والاصوات فازداد الجمل جعجعة ولكنه بقى في مكانه حتى بلغه عبد الله فعرف انه جمل سيده حقا غير انه لا يستطيع النهوض كأنه معقور، فغاص عبد الله في الماء حتى دنا منه فأدار الجمل رأسه اليه كأنه يحييه ويستنجده.

ولما تحقق انه معقور ، ولم يجد حسنا عنده ، اضطرب وشغل باله ، فأسرع الى الرحل فنزعه عنه، ووقف مدة وهو يفكر فيما عسى أن يكون قد حدث لحسن. واشتد به الاضطراب والقلق . ولم يجد فائدة من أن يسأل عنه في بيت عرفجة لأنه لم يجده هناك بالامس، وقد خشى اذا سأل سمية عنه ان يزيد في بلبالها. فخطر له ان يقصد الى المكان الذي باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلى الاخيلية ، فسار اليه ، ومر اثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار ، ولما لم ير أثرا لحسن واصل السير حتى اتى البيت فلم يجد به احدا، فجلس وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما ، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتشه فوجد اسطوانة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التي يحملها حسن الى مكة. فلما رآها ازداد قلقه وقال في نفسه لو أن حسنا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه، لأنه انما جاء هذه الديار من أجله . فترجح لديه انه قتل أو أصيب بمكروه، فقضى نهاره لم يذق طعاما ، وأخذ يندب مولاه تارة، ويعلل نفسه بلقياه تارة أخرى . ولم يغادر سوقا ولا دربا من دروب المدينه الا مر به وهو يتفرس في وجوه الناس ويتنسم الاخبار ، فلم ير الا انهماك الناس في اعداد النجدة للحجاج عملا بما حمله البريد اليهم. وبات ليلته بالمدينة وهو يفكر في الامر، فقر رأيه أخيرا على ان يحمل كتاب خالد إلى عبد الله بن الزبير في مكة فيتم المهمة التي جاء حسن من أجلها ، على ان يبحث عنه في أثناء ذلك...

❋

عبدالله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير بن العوام من كبار الصحابة. وكان قد رفض المبايعة ليزيد بن معاوية كما رفضها الحسين بن علي، وخرجا من المدينة الى مكة، ودعا كل منهما الى بيعته هو، على ان عبد الله رأى الا يتظاهر بذلك والحسين في مكة لعلمه انه أولى منه بالبيعة. فلما كان شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله في كربلاء، خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل أمره، وجعل مكة عاصمته. وبايعه أهل الحجاز واليمن. وحاربه بنو أمية ولكنهم لم يبلغوا منه وطرا، فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان، وكان الحجاج يومئذ أحد أمراء عبد الملك، ولهذا ثقة في شجاعته، رغب الحجاج في قتال عبد الله، وقص على عبد الملك رؤ يا قال انه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه، وطلب من عبد الملك أن يشخصه لقتاله، فأشخصه في ثلاثة آلاف من أهل الشام، وأعطاه كتاب أمان الى ابن الزبير ومن معه ان أطاعوا، وأوصاه بأن يرفق بالكعبة.

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ. وحدثت بينه وبين ابن الزبير مناوشات لم يتم الفوز فيها لأحدهما، فمل الحجاج، وأرسل الى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير، فأذن له وأنجده بخمسة آلاف آخرين، فاشتد بذلك ازر الحجاج، وحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق. فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه، ولكنه أصر على رأيه. وطال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد. وكانت مكة يومئذ قليلة العمارة ليس فيها غير المسجد وفي وسطه الكعبة وبعض الابنية، وكانت الكعبة قد تهدمت في حصارها قبل قدوم الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه.

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل ابي قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق.

وكان ابن الزبير مقيما مع أهله بالمسجد الحرام، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت وصبروا معه صبر الرجال. وأما الحجاج فكانت خطته ان يستمر في تضييق الحصار على عبد الله، ويعث بسر اياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها. ولما طال أمد الحصار دون ان يستسلم المحاصرون استنجد الحجاج طارقا أمير المدينة كما تقدم.

■

ولنرجع الى حسن وقد خرج من المدينة على جمل أهداه اياه أبو سليمان، ومعه العبد بلال. وبعد مسيرة أيام أشرفا على مكة عند الغروب فرأياها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها. فقال بلال: «اني أرى الطلائع الأموية حول مكة، ولا آمن إذا واصلنا السير أن يمنعونا، فهل تأذن لي في الخروج اليهم للاستطلاع ثم أعود اليك ؟».

فوافقه حسن على ذلك، وأوصاه بالرجوع اليه عند حائط انتظره فيه بعيدا من الطريق العام.

وسار بلال، واتجه حسن الى ذلك الحائط، وهو من آثار بناء قديم هناك، وترجل وعقل جمله وراء الحائط ثم اتكأ بجانبه بحيث لا يراه أحد من المارة. ولبث مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ما قاساه من الجهد في أثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فأحس براحة، ولكنه ما لبث ان رأى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع. فلما آن العشاء استبطأه وحسب لتأخره ألف حساب، ثم وقف وتسلق الحائط وجعل ينظر الى الافق لعله يراه قادما.

وفيما هو في ذلك سمع سعال بلال، فالتفت فرآه قادما يعدو عدو الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها، فلما وصل اليه قال: «لا سبيل لنا الى مكة الليلة لأن رجال الحجاج مضيقون عليها الحصار، من كل ناحية حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد».

قال حسن: «وما الحيلة ؟ . لا بد من دخولنا».

قال: «ليس لنا يا مولاي الا ان نصبر الى الغد، لأبحث عن سبيل الى دخولنا».

فقال: «أنبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟».

قال: «كلا يا مولاي، فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك الدخول».

قال: «وما هي ؟».

قال: «أتعرف محمّدا بن الحنفية ؟».

قال حسن: «كيف لا وهو ابن الامام علي، وأخو الحسن والحسين من أبيهما ؟».

قال: «ان له حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير، فاذا وسطناه دخلنا مكة على أهون سبيل».

قال: «كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبد الملك، لانه يزاحم الاول على الخلافة في الحجاز، ويزاحم الآخر على الخلافة في الشام. ألم تسمع بحديث المختار ؟». فقال بلال: «كيف لم أسمع به ؟».

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه: «لقد كان المختار يطالب بالخلافة لمحمد بن الحنيفة،

ثم قتله مصعب أخو عبد الله بن الزبير المحصور في هذا الحرم الآن، وجاء عبد الملك بن مروان فحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه».

قال: «صدقت يا مولاي، ولكن المختار طلب من تلقاء نفسه البيعة لابن الحنفية دون أن يكلفه هذا بذلك ولا أراده، وقد لجأ المختار الى هذه الخطة تمهيدا لاستقلاله بالامر لنفسه، وعلى هذا حمل الكرسي المشهور امره عند الناس، وزعم انه كرسي الامام علي، كما ادعى ما يشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه».

فقال حسن: «هل رأيت ذلك الكرسي وهل تعرف أصله؟».

قال: «ان سر هذا الكرسي عندي، وطالما جلست عليه قبل ان يصبح مقدساً كما ادعى المختار».

قال: «وكيف ذلك يا بلال؟ انك والله لواسع الاطلاع».

قال: «ان الذي يعيش طويلا يرى كثيرا. فقد اتفق لي منذ بضع سنين وأنا في المدينة اني اصطحبت رجلا اسمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة، وكانت جدته ام جعدة أخت علي بن أبي طالب. وكان يتردد الى جار له زيات كنت أتردد اليه أحيانا، فأصيب الطفيل يوما بضيق ولم يبق معه ما ينفقه على نفسه. وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين، فأراد الطفيل ان يحتال عليه ليكسب منه مالا، فاشترى من جاره الزيات كرسيا قديما كان مهملا عنده ثم غسله وسقاه الدهن حتى لمع، وذهب به الى المختار وقال له: «اني كنت أكتمك شيئا وقد بدا لي أن أذكره لك. ان أبي جعدة كان يجلس على كرسي عندنا، ويروي ان فيه أثرا من علي. فقال له المختار: «سبحان الله لماذا كتمت خبره، ابعث به الي. فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة، فدفع له اثني عشر الف درهم. فأخذها الطفيل وانصرف. ثم غشى المختار الكرسي بالديباج وزينه بأنواع الزينة، ودعا الناس الى المسجد حيث أراهم اياه بعد الصلاة وقال لهم: (ان هذا الكرسي من ذخائر امير المؤمنين علي عليه السلام، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني اسرائيل). فصدقوه وصار اذا حارب خصومه حمل الكرسي معه الى ميدان القتال وقال لمن معه: (قاتلوا ولكم الظفر والنصر، هذا الكرسي محله فيكم محل تابوت بني اسرائيل، وفيه السكينة والبقية، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم)..».

فقال حسن: «لعلك تعرف ابن الحنفية؟».

قال: «نعم يا مولاي، وقد شهدت كثيرا مما يتناقله الناس من أحاديث قوته البدنية. واذكر اني رأيته في حياة ابيه الامام علي، وكنت غلاما، وفي يد أبيه درع طويلة فأراد ان ينقص بعض حلقاتها فدفعها الى محمد وأمره ان ينقص منها كذا حلقة، فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدده أبوه. وهو يعرفني أيضا».

فقال حسن : «وماذا ترى انْ نصنع الآن ؟».

قال : «ان ابن الحنفية مقيم الآن بالشعب في جوار مكة ، فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى ما يكون في الغد».

فقال : «وهل تعرف الطريق اليه ؟».

قال : «عرفته في أثناء غيابي عنك الآن ، وقد أوصاني بك مولاي أبو سليمان خيرا أراك أهلا له . . فأنا خادمك حتى تبلغ مأمنك».

فقال حسن : «بورك فيك» . وأخذ يهيىء رحله للركوب وبلال يساعده ويقول : «اني أرى مكة في ضيق شديد ، وأخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر ، فان الامويين غالبون آخر الامر على ما أرى». فتذكر حسن ما هو قادم لأجله وخاف الفشل ، ولكنه صبر ريثما يدخل مكّة في الغد .

سار حسن وبلال حتى أتيا أرضا صخرية مشيا بين سقوفها . ثم صعدا تلالا أشرفا منها بعد قليل على شعب بعيد أوقدت به نار لهداية الضيوف كما هي العادة عند العرب . وهم حسن بأن يسأل بلالا فاذا بهذا يقول له : «اننا على مقربة من الشعب ، وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل ، فهل تريد ان ننزل في دار الاضياف رأسا أم نقصد خيمة محمد نستأذنه ونخاطبه في أمر دخولنا مكة ؟».

قال : «أخشى ان يكون في ذهابنا الآن الى خيمته ما يزعجه ، فلنترك ذلك الى صباح غد».

قال : «اذن نذهب الى دار الضيافة فانهم لا يسألون القادم اليها عن سبب قدومه ، ومتى أصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجت انا الليلة لأدبر الامر».

فأثنى حسن على غيرته . وبعد قليل لاحت لهما خيام عديدة منصوبة على غير نظام يتوسطها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس في الخيام حتى تبين خيام الاضياف وعرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار. فسارا حتى اقتربا منها فسمعا لغطا وكلاما. ثم ترجل حسن، وسبقه بلال الى أقرب الخيام فلقيه رجل رحب به وسأله عما يريد، وطلب اليه ان ينتسب، فانتسب وقال : «اننا أضياف غرباء». فأنزلهما على الرحب والسعة ، وأفرد لهما خيمة ليس فيها أحد. فدخل حسن ، وأعطى بلال الجمل لأحد الخدم ليأخذه الى المعالف، ثم عاد الى حسن فوجد عنده طعاما أعده القوم، فأكلا ، ثم خرج بلال، على ان يعود بعد قليل ،وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له، وكان التعب قد أخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس عليه فنام، ولكن هواجسه لم تنم معه فتحولت الى أحلام مزعجة رأى فيها انه دخل مكة وقد دخلها

الحجاج وقبض عليه وحبسه وقيده ، فشق ذلك عليه وانزعج ، ثم أفاق من نومه مذعورا فشكر الله لان ذلك كان حلما ولكنه تشاءم وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لا يأتيه. فأراد رؤ ية بلال لعله يقص عليه ما يتسلى به ريثما يطلع النهار، وخرج للبحث عنه عند باب الخيمة حيث ظن انه نام هناك، وناداه فلما لم يجب ظنه مستغرقا في النوم، ثم ما لبث أن تبين انه لم يعد بعد، تفرس في النجوم فعلم انه في الهزيع الاخير من الليل، فقلق على بلال، التف بردائه اتقاء للبرد ، وخرج ليبحث عنه حول الخيام.

■

وفيما هو في ذلك سمع جعجعة جمل قادم نحو الخيام فالتفت فاذا هناك جملان على أحدهما ما يشبه الهودج ويقوده رجل ماش لم يستطع تبين وجهه لاشتداد الظلام، فتبادر الى ذهنه ان رجلا وامرأته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح ولكنه استغرب مسيرهم في اواخر الليل بجوار مكة وهي في حصار شديد . فعاد الى خيمته وفي نفسه ان يستطلع حقيقة القادمين

فجعل ينظر من شقوق في الخيمة تطل على الطريق، فرأى ان الجملين قد انيخا ونزل راكب أحدهما وهو رجل قصير القامة، ملثم بعمامته وقد التف بعباءته. ثم رأى الرجل الذي كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع الحركة ، تسلم جمل الراكب الاول وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول : «أترى يا مولاي أن أبقى هنا مع الجملين، ام أسير في خدمتك ؟».

فرد عليه الرجل بصوت منخفض قائلا : «امكث انت هنا واحتفظ بما على الجمل فانه أعز شيء عندي كما لا يخفى عليك».

قال : «هل اسير في خدمتك الى خيمة الاضياف ؟».

قال : «لست ذاهبا الى هناك ، فامكث انت هنا ريثما أعود اليك». قال ذلك ومشى .

وكان حسن يتوقع اذ يرى زوجة الرجل الاول تنزل من الهودج، ولكنه رآه ما زال مجللا بغطائه، ثم رأى العبد عاد الى الجمل الذي يحمل الهودج وجلس بجانبه مستندا الى بطن الجمل، وما لبث ان نام نوما عميقا وعلا شخيره. فأستغرب حسن ما رآه، وكان قد تعب من الوقوف ، فعاد الى فراشه وفكره مضطرب . وبعد أن جلس قليلا عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد ازداد قلقه لغيابه، فأطل برأسه من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد احدا، وحال الظلام بينه وبين الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد أحدقت الهواجس به، فحدثته نفسه بأن يخرج الى ذلك العبد ويسأله عن سر الهودج، ولكنه أحجم وقال في نفسه : «لو كان بلال هنا لكلفته بهذه المهمة».

وفيما هو في ذلك سمع وقع أقدام خارج الخيمة تقترب من بابها، فأدرك ان بلالا قادم ،ولم يشأ ان يناديه لئلا ينتبه العبد الآخر النائم بجانب الجمل. فوقف ومشى الى الباب، فرأى بلالا يهم بالاتكاء، ورآه بلال فوقف وقال : «ما الذي ايقظك في آخر الليل يا مولاي ؟».

قال وهو يشير اليه ان يخفض صوته : «لقد استيقظت من زمن ، فقلقت لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس حطوا رحالهم وراء خيمتنا، وظهر لي من أمرهم ما أقلقني».

فقال بلال : «وما الذي تبغيه مني فأفعله، اني رهن اشارتك». قال : « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟».

قال : «كلا وانما جئت من هنا».

قال : «تعال اذن». وأمسكه بيده فأدخله الخيمة وأراه الجملين والعبد النائم تحت الهودج وقص عليه ما كان من أمرهم الىَ ان قال : «فهل تستطيع مخاطبة هذا العبد لتعرف منه الغرض من قدومهم ؟».

قال : «ذلك شيء يسير». ثم خرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجملين وحسن ينظر اليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس في وجهه والعبد نائم ثم انكفأ راجعا مسرعا حتى دخل الخيمة، فبادره حسن سائلا : «لماذا لم تخاطبه».

قال : «لاني أعرفه وأعرف حكايته ».

قال : «وكيف ذلك ؟».

قال : «اجلس لأقص عليك ما يغنيك عن كثرة البحث . لقد نمت أول الليل بباب هذه الخيمة ولكنني ما لبثت ان استيقظت وأخذت افكر في حيلة نستطيع بها مقابلة محمد غدا حتى لا يطول مكثنا. وخفت ان يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت ان أذلل العقبات وانت نائم، فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الامير كنت قد عرفته أيام كنا بالمدينة ولي عليه دالة . فلقيت الرجل في خيمة له بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، يدخل عليه صاحبي منه من باب خاص دون سائر الناس، فلما أتيته رحب بي وأكرمني وسألني عن أمري، فقلت له اننا جئنا نلتمس من الأمير وسيلة ندخل بها مكة . فوعدني خيرا ثم اجلسني وجعل يسألني عن حوادث مرت بنا قديما وأمور يهمه الاطلاع عليها، وكلما هممت بالنهوض اقعدني حتى طال بي الجلوس. وبينما انا أهم بالنهوض سمعنا وقع اقدام خارج الخيمة على غير انتظار فأقعدني صاحبي وخرج وهو يقول : «من الرجل ؟». وسمعت من يجيبه قائلا : «أنا عرفجة». ولما كنت أعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكثيرا ما رأيته في دار الامارة خرجت لأحقق امره فرأيت الرجل ملثما ولكنني عرفت انه هو صاحبي هذا من صوته وقامته ».

وهنا تذكر حسن ان الصوت الذي سمعه لما أناخ الرجل الجملين يشبه صوت عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه في هذا الليل، وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية، ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سليمان وأبيه وخادمه بلال. ثم على فرض ان عرفجة عرف بمسيره الى مكة فكيف يعرف انه في هذا الشعب . ولكن اذا كان هو عرفجة فمن عسى ان تكون التي جاءت معه في الهودج ؟ انه غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته سمية، فهل هي التي في الهودج ؟ وخفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه. كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه.

فقال حسن : «وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل في هذا الليل ؟».

قال : «كلا يا مولاي لأني رأيته يحدث صاحبي همسا فرأيت ان انصرف لأخلي لهما المكان. ولما استأذنت صاحبي ناداني اليه وقال : «موعدنا غدا ان شاء الله ». فعلمت انه لا يزال على وعده فأتيت وآثرت النوم بباب الخيمة الى الصباح».

فقال حسن : « وما الذي عرفته من أمر العبد النائم بجانب الجمل ؟».

قال : «عرفت انه قنبر خادم عرفجة ، وهو عبد سمج الخلق فظ الطبع يعرفه كل أهل المدينة».

قال حسن : «وما ظنك بمن في الهودج ؟».

قال : «لا أظنه هودجا وانما هو محفة . ولا يبعد ان يكون فيها بعض النساء او ربما كانت فيه ابنته سمية لانه ليس له سواها».

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت أشجانه، وتذكر ان بلالا لا يعلم شيئا من أمره مع سمية ، فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تحلد وقال : «أتظنه يحمل ابنته معه الى هنا في مثل هذه الظروف ؟».

قال : «لا أخاله يفعل ذلك ، وهب انه حملها فلا أظنه يبقيها محبوسة لا نسمع لها صوتا، ولاسيما ان المحفة ضيقة لا تكفي لكي تنام فيها».

فاطمأن قلب حسن على سمية ولكنه بقي مشغول الخاطر بأمر المحفة ، وهم بأن يعود الى سؤال بلال في شأنها ، فاذا بهذا يبتدره قائلا : «ليس في المحفة فتاة ولا امرأة ، فقد تذكرت الآن ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها في منزله لا يطلع احدا على ما فيها، وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها. فلعلها هي هذه».

فازداد حسن شوقا الى معرفة سر المحفة، ولكن القلق عاوده من جهة ما حمل عرفجة على القدوم في هذا الليل، فقال لبلال : «متى نذهب الى ابن علي ؟».

قال : «عند طلوع الشمس».

فعاد حسن الى فراشه ، واضطجع بلال بباب الخيمة . وقضيا ما بقى من الليل بين نوم وتقلب وهواجس، ولما طلع النهار نهضا وخرجا فما كاد حسن يلتفت الى موضع الجملين وراء خيمته حتى بغت اذ لم يجد لهما أثرا ، وظن ان عرفجة قد سافر.

وواصلا سيرهما بين الخيام، وهي على مرتفع من الارض متشعب، به للخيل والجمال مسارح وقد خرج الخدم ليقدموا لها علفها. فلما بلغا خيمة محمد، وكانت رحبة عالية قائمة على عمد عديدة ، رأيا بابها مسدلا فعلما ان محمدا في شاغل ، فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهي ملتصقة بها، فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما وهو يشير اليهما ألا يتكلما. فدخل حسن ونظر من كوة في الخيمة تطل على خيمة الأمير فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصير القامة عرف انه عرفجة، فقال في نفسه هذه فرصة لا ينبغي ان نضيعها ويجب ان نطلع على سر هذه المقابلة. وتفرس حسن في محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكتم فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لا تزال ظاهرة في كفيه ووجهه وعينيه.

وخاف حسن ان يكون تطلعه هكذا ما يؤاخذ به صاحب بلال ، فأراد ان يعتذر فتظاهر بالرغبة في الخروج فقال له الرجل : «تفضل يا مولاي واجلس فاني أحب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التي يزعم انها ذات بال، ولقد ساءني بخشونته حتى صرت لا أبالي كتمان سره».

فنزل هذا القول بردا وسلاما على قلب حسن، وفرح لتمكنه من نيل بغيته، ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه للاطلاع على السر، وجلس بحيث يرى ولا يرى فرأى عرفجة جالسا بين يدي ابن الحنفية ويخاطبه متهيبا ، وسمعه يقول له : «انت تعلم ايها الامام انك اولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فأنت وحدك ولي هذا الامر وليس بنو أمية سوى معتدين».

وظل محمد صامتا لا يتكلم ، فظنه عرفجة راضيا بما يقول، فاستأنف الكلام قائلا : «وأنت تعلم يا مولاي ان المختار قام بالدعوة لبيعتك، ولكنه لم يثبت على عهده فلم يوفقه الله ، كما تعلم ان السر الذي كان يستعين به على بث الدعوة جدير بأن يقوم به من تندبه لذلك».

وظل محمد صامتا مطرقا كأنه يفكر في أمر آخر، في حين مضى عرفجة في حديثه فقال : «ولا يخفى على مولاي الامام ان بني أمية الآن في شغل بعبد الله بن الزبير، وأكثر

جندهم منهمكون في حصاره ، والعراق خال ممن يدعو أهله الى الحق، فاذا ندبت احدا وسيرته الى العراق ليدعو الى بيعتك كان ذلك من سداد الرأي».

فرفع محمد رأسه وقال : «ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، ففيه قتل أبي وأخي غدرا وخيانة».

فزحزح عرفجة نفسه على البساط وقال : «ان السبب في ذلك الفشل لم يبق منه شيء الآن. واني أرى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحق».

فقال محمد : «ومن تراه يليق لهذه المهمة ؟».

قال : «انك انت الذي ستضع سرك بين يديه وتعهد اليه في النداء بصوت الله، فأمر اختياره اليك».

قال : «وبمن تشير ؟».

فسكت عرفجة وأطرق ، وكأنه يخشى ان يصرح بترشيح نفسه لهذه المهمة لئلا يساء الظن به ثم قال : «ان هذا الانتداب لا يكون الا بالهام من الله ، فاختر من يلهمك الله اختياره ».

قال : «واذا لم يلهمني الله ؟ ».

فارتبك عرفجة في أمره وتهيب التصريح له بغرضه . وكان غرضه الاول من هذا الامر كسب المال فباع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه .

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد وقد طلب الحجاج منه ان يبايع لعبد الملك، وطلب منه ابن الزبير ان يبايع له ، فأبى البيعتين ولبث في انتظار ما يكون من أمر مكة وحصارها، وذلك لانه كان عاقلا لا يجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة الى بيعته هو بعد ذلك الفشل. على انه ظل يساير عرفجة وهو لا ينوي ترك الحيـاد.

أما عرفجة فلم ير بدا من الاجابة فقال : «اذا لم تلهم اختيار أحد لهذه المهمة فاختر صاحب الكرسي».

فقال محمد : «وأي كرسي ؟».

فنهض عرفجة وتحول الى باب الخيمة ونادى قنبر عبده، ثم رجع ، وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار، فوضعها بين يدي محمد وخرج. فقال محمد لعرفجة : « ما هذا ؟».

قال : «هذا تابوت العهد !». ثم أخرج مفتاحا ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقه وهو يعجب من غدر عرفجة وخبثه. ثم ما لبث ان رآه مد يده الى داخل المحفة وأخرج شيئا مغشى بالديباج فرفع الديباج

عنه فاذا هو كرسي خشبه يلمع كالمراة.

وتقدم عرفجة بالكرسي حتى وضعه بين يدي محمد وهو يقول : «أليس هذا كرسي الامام علي الذي انتصر به المختار ؟».

فابتسم محمد وقال : «ولكنه فشل بعدئذ ».

قال : «لقد فشل لأنه لم يخلص النية في سعيه».

فقال محمد : «وهل تخلص انت النية اذا ندبناك لهذه المهمة؟ »..

قال وقد بان السرور في وجهه : «كيف لا ، وهذه بغيتي وأكون قد نصرت الحق وأهله ؟».

■

عجب حسن لقبول محمد هذا الامر ولكنه ما لبث ان سمعه يقول لعرفجة : «ولكن دعوة أهل العراق تحتاج الى المال ، لأن بني أمية انما غلبوا أخوي بالمال، وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال أيضا ، فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه في ابتياع الاحزاب والاتباع. فاذا كنت صاحب مال فاني أرجو لك النجاح».

فلما سمع عرفجة كلام محمد سقط في يده ، وخاب ما أمله، ولم يدر بماذا يجيب. ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : «ان هذا الكرسي الذي تزعم انه كرسي ابي ليس سوى كرسي قديم لأحد الزياتين . وقد زعمت اني ندبت المختار ليدعو الى بيعتي ، وهذا وهم باطل لأن ذلك الثقفي انما ندب نفسه لتلك المهمة ليشبع بطنه . فاذا كنت انت جائعا فالتمس بابا آخر غير هذا ! ». قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد في وجهه.

فارتبك عرفجة وتحقق ضياع أمله بعد ان قضى بضعة أعوام في تنميق ذلك الكرسي وصقله ، وكتمان أمره عن أهل المدينة . وكان لا يشك في انه اذا عرض الامر على محمد بن الحنفية وجد منه قبولا ، وبذلك يبتز منه المال ليشبع مطامعه وشرهه ، ويضيف ذلك المال الى ما قبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج.

وكان عرفجة من أصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة . لا يحجم عن عمل مهما يكن خطيرا ، اذا وجد فيه ما يشبع نهمه الى المال فلما تبين الغضب في عيني محمد، عمد الى الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب وقال : «لقد عجلت يا مولاي بالحكم علي ، وانا انما أدعوك الى أمر عائدته لك ولأهل بيتك، ولا التمس على ذلك أجرا ولا شكورا».

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا وقال : «اتظن امرك يخفي علي ؟. لقد قرأت المكر والخديعة في عينيك. ولولا حرمة الجوار لألحقتك بالمختار وألحقت بك بني ثقيف !». ثم نادى : «سعيد».

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح، وأسرع حتى دخل على محمد، وحسن وبلال ينظران وقد غلب عليهما السرور.

فلما وقف سعيد بين يدي محمد قال له: «ألق هذا الكرسي في النار، وأخرج هذا الثقفي من خيمتي، وليقم حيثما يشاء واذا رحل فزودوه بما يحتاج اليه».

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط، فوجده يبحث عن عبده قنبر فلما لم يجده التفت اليه وقال: «اني راحل الى بلدي وقد اسفت لأن الامام محمداً لم يفهم مرادي». قال ذلك متلطفا خوفا على حياته. فعجب سعيد للفرق العظيم بين هذا التزلف وبين مقابلته الخشنة ساعة وصوله بالأمس. وذلك شأن اهل الكبرياء يستبدون بالضعفاء من الناس، فاذا لقوا قوياً استولى عليهم الذل وصغرت نفوسهم. لأن ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم يكن عن نفس كبيرة وانما هو ضعف رأى وصغر نفس.

وكأنما رق قلب سعيد لتزلف عرفجة، فعرض عليه النزول في دار الأضياف فاعتذر برغبته في الرجوع، وكان قنبر قد عاد فناداه وأمره باعداد العدة للرحيل، ثم ركب عرفجة جملا وقنبر الجمل الآخر وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج. فلما بعدا عن الخيام أخذ عرفجة يتوعد محمدا بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر ما بدا لعبده من فشله.

أما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسي وألقاه في النار وعاد الى حسن وبلال في خيمته فأخبرّهما بخروج عرفجة من الخيام، وهنا عاد حسن الى التفكير في دخول مكة فسأل سعيدا في ذلك فأجاب بقوله: «سألت مولاي الامام في هذا الشأن فأمر بذهابي معكما لأني تعودت الذهاب الى مكة خلال الحصار واكثر الطلائع يعرفونني». قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه في الذهاب معهما فأذن له.

وعاد سعيد اليهما بالاذن فخرجا الى دار الأضياف ليتأهبا للسفر، وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه، والشمس قد تكبدت السماء.

■

وفيما هم يسيرون وحسن يفكر في مهمته وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير وليس معه كتاب خالد، رأوا غبارا يتصاعد في الأفق من جهة طريق المدينة، ثم انقشع الغبار عن اعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع، فلما اقترب الركب تفرس حسن في الأعلام والناس،

فأدرك انهم من انصار بني أمية وأنهم قادمون من المدينة لنجدة الحجاج .

ولكنه استغرب وصولهم في ذلك اليوم مع انه اقلع قبلهم، والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم، فظن نفسه مخطئا في حكمه عليهم فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق أنها لأهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها، وعلم من عظم السرعة التي مشت بها تلك الحملة ما يدل على اضطرار الحجاج اليها. فترجل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم أحد، وجعل يتفرس في وجوه الناس ومر الفرسان وحملة الرايات اولا، ثم تبعهم المشاة فأحمال الزاد والمؤونة .

وأخيرا رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه فارس. ولم ير في تلك الحملة هودجا غيره وكان من عادة العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام ان يحملوا معهم النساء والأولاد حين يخرجون الى القتال. فاستغرب حسن امر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء بأمره انه لبعض الأمراء. وما درى انه يقل حبيبته التي سلبت لبه وانهم يحملونها الى سواه . ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها . ولو صح ما قاله الشعراء من تواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن وخفق قلبه ودله على ساكنة الهودج .

وظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها اتجهت الى جبل أبي قبيس، فتحققوا انها نجدة المدينة الى الحجاج، لعلمهم بأن الحجاج يقيم هناك .

رمي الكعبة بالمنجنيق

سار حسن وصاحباه حتى أقبلوا على مكة فرأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها، وجاء اليهم بعضهم، فتقدم سعيد لاستقبالهم وأخبرهم بأنهم ذاهبون في شأن يخص ابن الحنفية، فأذنوا لهم في الدخول.

ونظر حسن الى جبل أبي قبيس فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت أشباحهم لبعد المسافة. وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن فقال سعيد: «اننا في الحجون». فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فأشرف على المسجد الحرام والكعبة في وسطه. وكان قد زار مكة من قبل ورأى الكعبة لكنه رآها اليوم اكبر مما عهدها، ورأى على سطحها أشياء غريبة كالفرش والأثاث، فوقف هنيهة يفكر في الأمر، ثم قال لسعيد: «اني أرى الكعبة على غير ما أعهدها فيه، وكأنها اتسعت، وكأن عليها فرشاً وأثاثاً، وكأن على أرض المسجد خياماً! ألست ترى ذلك؟»

فقال سعيد: «لقد صدق ظنك، فالكعبة الآن اكبر مما تعهدها لأنها احترقت في الحصار الماضي على عهد يزيد بن معاوية، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كان عليه في الزمن الأول قبل أن تبنيها قريش. واما ما تراه على سطحها فهو الواح من الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق، لأن الحجاج نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس وجعل يرمي الكعبة بالحجارة، نكاية بابن الزبير».

فقطع حسن كلامه وقال: «اعوذ بالله! أيرمون بيت الله بالحجارة؟»

فقال: «هذا عمل الحجاج فانه رجل ظالم لا يبالي شيئاً في سبيل مقاصده، فقد رأيناه يرمي الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها. واتفق في الحجة الماضية ان عبد الله بن عمر حج، وكان مولاي الامام محمد في جملة الحجاج، فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا، فبعث ابن عمر الى الحجاج يقول له: (اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من اقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا، وان المنجنيق قد منعهم من الطواف والسعي). فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادي الحجاج: (انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى رمي الحجارة على ابن الزبير الملحد). وسمعت أنه أول ما رمى الكعبة بالمنجنيق أرعدت السماء وأبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة، فأعظم رجاله الأمر وامسكوا أيديهم. فأخذ الحجاج

حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم. فلما اصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه أثني عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله: (يا أهل الشام لا تنكروا هذا. فاني ابن تهامة وهذه صواعقها. وهذا الفتح قد حضر فأبشروا). فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت نفراً من أصحاب ابن الزبير، فقال الحجاج: (الا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافها)..».

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جمله حتى نزلوا أسواق مكة فقال لسعيد: «لقد بلغنا مأمننا، فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيراً».

فقال: «بل أوصلكما الى المسجد فأطوف طوفة وأعود».

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد: «هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة. انظر الى حمام الحرم كيف تطاير اجفالا من صوت وقوعه».

وكان حسن قد احس بالجوع لأنهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا فقال لسعيد: «بالله الا اخذتنا الى احد باعة الاطعمة فنأكل شيئاً». فضحك سعيد وقال: «ان الاطعمة قليلة في مكة والناس في ضنك شديد من الجوع، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم، والمد من الذرة بعشرين درهماً، وقد سمعت ان ابن الزبير اضطر لما اصاب رجاله من المجاعة ان يذبح فرسه ويقسم لحمها فيهم». قال ذلك وادنى فمه من اذن حسن وقال بصوت منخفض: «ولكنني اعلم ان بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنها خوف المجامعة. ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة ليستسلم».

فقال حسن: «لا بد من ابتياع شيء نأكله ولو كان غالياً». فأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فأكلوا على عجل، وساروا حتى أتوا المسجد الحرام، فدخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة في الطواف، ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له. «انه يصلي بجانب الكعبة». فسأل «وأين يذهب بعد الصلاة؟». فقالوا: «انه يذهب الى بيته». ثم دله سعيد على بيت ابن الزبير وودعه وعاد الى الشعب.

وبعد ان صلى حسن ركعتين وطلب الى الله ان يرشده الى الصواب، جلس في بعض اطراف المسجد ينتظر فراغ عبد الله من صلاته، وجعل يفكر في امر المهمة التي جاء لأجلها، والوقت ليس وقت خطبة ولا زواج، ثم تذكر ما كان من أمر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا. وانتقل به التفكير الى ما كان من أمر عرفجة في ذلك الصباح، وخيل اليه ان الفشل الذي اصابه سيحمله على العودة الى المدينة لأنه لا يستطيع الغياب عنها طويلا وليس عند سمية أحد. ولعله يعدل بعد ذلك عن رفضه تزويجها له.

ولاحظ أن من يدخلون المسجد قليلون. ثم ما لبث ان سمع قرقعة وأحس شيئاً هوى بالقرب منه وسمع رفرفة اطيار فالتفت فرأى حجراً كبيراً أصاب الكعبة وسقط على الأرض. فعلم انه من

احجار المنجنيق وقد اجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ثم عاد فوقع على جوانبها وعلى جدران المسجد، ولم ير الناس يهتمون لتلك الحجارة لانهم الفوا سقوطها بينهم .

وتذكر ان عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة المنجنيق. وخاف ان يكون ذلك الحجر قد اصابه ولاسيما ان وقت صلاته طال. فقلق عليه، ونهض فسار في فناء المسجد يلتمس الكعبة حتى مر بالحطيم وحجر اسماعيل. ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الاخرى بضعة رجال وقوفاً. فاقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله . فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلاً ساجداً قد استقبل الارض بوجهه. ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك. فخيل له أنه ميت. واستغرب وقوف الناس هناك دون ان يهتموا له. فاقترب من احدهم وحياه، وسأله من شأن ذلك الساجد، فابتسم الرجل وقال: «الا تعرف من هو؟ إنه امير المؤمنين» .

فادرك حسن انه عبد الله بن الزبير وزاد استغراباً وقال: «ما للحمام يقع على ظهره فلا يتحرك».

قال: إنك غريب فيما يبدو. فلا تعلم انه مولانا امير المؤمنين اكثر الناس صلاة وسجوداً، وكثيراً ما رأينا الطير على ظهره في أثناء الصلاة تظنه حائطاً لسكونه وطول سجوده».

فقال حسن: «انه سجود طويل» .

وجاء رجل آخر كان واقفاً هناك وقال: «انكم لا تعلمون من تقوى أمير المؤمنين الا قليلا. اما انا فقد صحبته طويلا فرأيته يقضي لياليه على ثلاث: ليلة يقضيها قائماً الى الصباح، وليلة راكعا، وليلة ساجداً. ناهيك بصومه فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة أيام يفطرها في كل شهر» .

فدهش حسن وقال في نفسه: «يجدر بمن كان هكذا ان يكتب له النصر».

وفيما هم وقوف سمعوا صوتا كهزيم الرعد، أدركوا انه صوت المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنه وهو لايزال سكناً لا يتحرك، فذهل حسن وقال لصاحبه: «الا تخافون على حياة أمير المؤمنين؟» .

قال: «لقد طالما نبهناه الى ذلك وكثيراً ما وقع له مثل ما تراه وهو لا يبالي» .

فقال حسن: «أرجو ان يحرسه الله» .

فقال الرجل: «ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته، وقد وقع هنا في العام الماضي سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف امير المؤمنين سابحاً!» .

فشل ابن الزبير

تأمل حسن في وجه مخاطبه وهو يتكلم والاهتمام باد في محياه لا يدري بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له، ورآه موجها نفسه اليه كأنما يتوقع ان يسأله ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصد دعوته. قرأ حسن كل ذلك في عيني الرجل فأدرك انه من اشد انصا ابن الزبير غيرة عليه، وتبين له من قيافته وهندامه انه من وجهائهم. وزاد اعتقادا في وجاهته لما انسه من لطفه ودعته، لان الانسان يزداد لطفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة، فاذا رأيت جفاء وكبرياء من احد الناس وانت لا تعرفه فاعلم انه دنيء الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر، ولا بما في خزائنه من الاموال الطائلة.

وبينما حسن يفكر في ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه، سمعا عبد الله ينادي: «اين ابن صفوان؟». ثم رأى الرجل الذي كان يخاطبه بغت وأسرع الى عبد الله يقول: «لبيك يا امير المؤمنين».

ففهم حسن انه عبدالله بن صفوان الجمحي، وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير وتفانيه في نصرته، وهو اصلع في نحو الستين من عمره، عريض الجبهة خشن الملامح عريض الفكين، مما يدل على الثبات والقوة. ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيأ للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة في اسفل ذقنه خفيفة في عارضيه. وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأى شعره جمة مفروقة طويلة. وتأمل في وجهه فرأى الهرم قد بدا في ملامحه لفرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار وشدة ما أحاط به من الضيق، وهو في الثالثة والسبعين من عمره، لأنه اول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة.

وهم حسن بالسلام عليه وتقبيل يده، ولكنه راه اتجه إلى موضع آخر دون أن يلتفت إلى أحد، وأعجب بمشيته الثابتة التي تدل على جلال ووقار، ورأى ابن صفوان يسير في أثره مراعيا إياه بعينيه وكل جوارحه، وفي مشيته عرج، فعلم انهما سائران الى البيت، فاقتفى اثرهما وهو يفكر في مخاطبة عبد الله بالأمر الذي جاء من أجله لكنه تهيب واستحيى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق، ورأى ان يتحين لذلك فرصة أخرى.

وخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يتبعه وحسن في أثرهما. وكان الناس يقفون في

الطريق لتحية عبد الله. حتى اشرفوا على دار واسعة قد غصت بالواقفين من الناس. وخارجها مرابط الخيول والمعالف. فلما أقبل عبد الله على الدار توجهت أبصار الناس اليه ووسعوا له، فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشرف على مقعد في صدر القاعة فجلس عليه الاربعاء، وجلس الى يمينه شاب كبير الشبه به، فأدرك حسن انه احد أولاده، ثم جاء شابان آخران فجلسا عن يساره. وجلس بقية القوم بين يديه لا يفوه أحدهم بكلمة لفرط ما أحاط بهم من الامر العظيم. ولبثوا هنيهة كأن على رؤ وسهم الطير. اما حسن فرأى نفسه غريباً بين هذه الجموع، وهم بالخروج فرأى ابن صفوان يشير اليه من بعض جوانب القاعة داعياً اياه الى الدخول، فمشى اليه وجلس الى جانبه وقال له: «يسرني اني عرفتك اليوم وقد طالما سمعت باسمك». فقال ابن صفوان: «فهلا انتسبت لأعرفك انا أيضاً».

قال: «سأطلعك على امري فيما بعد، فلا غنى لي عن معونتك».

وكانا يتكلمان همساً والناس سكوت، وربما أدرك أحدهم السعال فأمسك عنه. فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال له: «أي ابناء امير المؤمنين هؤلاء؟».

قال: «ان الذي تراه الى يمينه هو أخوه عروة بن الزبير. اما الجالسان الى يساره فولداه حمزة وحبيب، وترى على مقربة منهما شاباً مطرقاً هو الزبير ولده الثالث، وان هذا الشاب لجدير بأن يكون ابن أمير المؤمنين»: ثم تهيأ للنهوض قائلاً: «لا بد لي من مفارقتك الآن لأمر يدعو الى ذلك، فاننا في مجلس ذي بال اليوم، وستسمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل». ثم سار حتى وقف على مقربة من عبد الله فأشار اليه عبد الله ان يقعد.

وبعد قليل، وقف أحد الجالسين وخاطب عبد الله قائلا: «يا أمير المؤمنين، اننا بحمد الله نؤمن بصدق دعوتك وانك على الحق. وقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا، ولئن صبرنا معك ما نزيد على ان نموت. وانما هي احدى خصلتين، اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا، واما ان تأذن لنا فنخرج».

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وانهم صائرون الى الفشل. ثم سمع ابن الزبير يقول: «الم تبايعوني على انفسكم واموالكم؟».

فقال الرجل: «بلى ولكنا نرجو ان تقيلنا بيعتنا، اذ لا نرى فائدة من البقاء عليها».

فقال عبد الله: «انني عاهدتُ الله على ألا يبايعني احد فأقيله بيعته الا ابن صفوان».

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال: «أما أنا فاني اقاتل معك حتى أموت ولا اسْلمك في مثل هذه الحالة».

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضج الناس، وانقسموا شيعاً وأحزاباً،

وبدا ان اكثرهم لا يرون رأي ابن صفوان. فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وقال: «بورك فيك يا ابن صفوان، بورك في رجل بايع وثبت على بيعته، ان أمير المؤمنين كما تعلمون أولى الناس بهذا الامر، وذلك لأن عثمان استخلفه على داره يوم مقتله فهو ولي عهده من ذلك اليوم. انكم لتعلمون انه نعم الخليفة لا تغره بهارج الدنيا. الا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال؟ في حين يستعين امير المؤمنين بالصوم والصلاة. تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله اجمعين. ألم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت أبيه مروان؟. أنتم تعلمون ان عبد الملك كان من فقهاء المدينة، ولكثرة ما كان يظهره من التدين والتقوى سموه حمامة المسجد. فلما مات أبوه وبشر بالخلافة كان المصحف في يده فأطبقه وقال: (هذا فراق بيني وبينك!). فأين هذا من سجود أمير المؤمنين وصلاته وصيامه مما لا يخفى على أحد. هذا وان لأمير المؤمنين بيعة في أعناقكم، وانتم جماعة قريش اهل الحماسة والنخوة، فكيف تغادرون أمير المؤمنين في مثل هذه الحال؟. اما لكم أسوة بابن صفوان؟».

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد امتقع لونه وأيقن ان القوم قد نكصوا على اعقابهم. فكيف يستطع غير الانتصار لما رآه حقاً. وكانت الابصار شاخصة اليه لأنه غريب لم يعرفه أحدهم. وكان عبد الله ابن الزبير ينظر إليه ويعجب بغيرته. فلما فرغ من الكلام علت الضوضاء فوقف رجل آخر وقال: «لقد نطقت بالصواب، وان البيعة في أعناقنا لا ننكرها، وما نحن خارجون من بين يديه الا بأمره. ولكننا نرى القتال أصبح عبثاً، ومعنا من الرجال عشرة آلاف، وقد جعنا جميعاً وعطشنا وقلت مؤونتنا وذخيرتنا. وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لا يبالي حرمة هذا البيت. وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الامان فمن خرج اليها سلم. فما بالنا لا نختار الطريق الاسلم». ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال: «اكتب الى عبد الملك بن مروان لترى رأيه فلعلكما تنتهيان إلى أمر فيه صلاح الحال».

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان أجفل وتغير وجهه وقال: «كيف أكتب اليه؟.. أبدأ بنفسي أو أبدأ به. أأكتب (من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان؟). فوالله لا يقبل هذا أبداً. أم أكتب (لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟). فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب الي من ذلك». قال ذلك وعاد الى اطراقه، وسكت الناس ينتظرون رأياً جديداً فاذا بعروة بن الزبير أخي عبد الله التفت اليه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له: «يا امير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة».

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب في جبينه: «من هو؟».

قال عروة: «حسن بن علي، فانه خلع نفسه وبايع معاوية». ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها حتى ألقاه عن المقعد. فأجفل الناس من سقوط عروة وأعظموا غضب عبد الله فتهيبوا، ثم سمعوه يقول له: «يا عروة. والله لو قبلت ما يقولون ما عشت الا قليلا ولاأخذت الا الدنية. وان ضربة بسيف في عزخير من لطمة في ذل». ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص في وجهه من شدة التأثر وقال لهم: «أنتم مخيرون فافعلوا ما تشاؤ ون، وان رجلاً يجر الى الحرب بحبل لايحارب، وان الله وليي ونعم النصير». قال ذلك وأراد الانصراف، فوقف ولداه حمزة وحبيب وقالا: «هل نحن مخيران أيضاً؟».

فعجب حسن لما سمعه وقال في نفسه: «حتى أولاده تخلوا عنه». والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ثم قال: «نعم وأنتما أيضاً في حل، امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا». ثم اختنق صوته فسكت ريثما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث الزبير وقال له: «وانت يا بني أطلب لنفسك أمانا مع اخويك فوالله اني لأحب بقاءكم».

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف: «حاش لله ان أتخلى عنك فما كنت لأرغب بنفسي عنك».

■

انصرف عبد الله من باب يؤدي الى دار النساء، وظل حسن واقفاً يسمع ما يدور بين الحاضرين. فعلم أنهم اجمعوا على الخروج الى الحجاج يلتمسون أمانه. وأدرك ان أشد ما ابعدهم عن عبد الله انه يفتر عليهم. في حين يسخو عبد الملك على بني أمية ويبذل الاموال لمناصريه. فساءه ذلك لاعتقاده ان هؤلاء إنما أرادوا الخروج رغبة في العطاء، وان صبر ابن الزبير لا يفيده شيئاً ولكن الانسان لا يعيش في هذه الدنيا عمرين وانما هي موتة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والمروءة.

وأحس حسن بيد أمسكته، فالتفت فاذا بابن صفوان يدعوه اليه فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول: «ان أمير المؤمنين يدعوك وقد أحب أن يراك». قال ذلك وتركه هناك وخرج.

فسر حسن لهذه الدعوة ورآها فرصة لأداء المهمة التي جاء لأجلها، وان كان الكلام فيها لا يجدي نفعاً.

ثم عاد اليه ابن صفوان واشار اليه أن يتبعه، ومضى به الى حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيه وحده وقد أخذ منه الغضب مأخذاً عظيمًا، وهو تارة يمسح جبهته وطوراً يحك لحيته، وآونة يشمر عن ساعده أو يرسل كمه مما يدل على عظم البلبال. وتأمل حسن في تلك الحجرة فاذا هي لاشيء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد. فلما أقبلا عليه تقدم حسن اليه وسلم بالخلافة

فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد، فلم ير الجلوس وابن الزبير واقف، فألح عليه هذا بالجلوس وقال: «دعني واقفاً وسأجلس بعد هنيهة».

فجلس حسن وبقي ابن صفوان واقفاً مكانه يراعي عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم.

ثم التفت عبد الله الى حسن وقال: «من اين قدمت؟».

قال: «من الشام».

فبغت عبد الله عند سماع اسم الشام لأن فيها اعداءه ومناظريه، والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته في الاستغراب فرآه لا يقل عنه استغراباً، فقال عبد الله: «وما الذي جاء بك الينا ونحن في هذه الحال. لعلك جاسوس؟».

قال: «معاذ الله يا مولاي! كيف أكون جاسوسا وأفعل ما فعلته اليوم؟».

فجلس عبد الله على جانب المقعد وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس.

ثم قال عبد الله: «لا غرابة فيما ظهر منك ان كنت جاسوساً لأن الجواسيس يتلونون تلون الحرباء. على اني لا أبالي مهما يكن من أمرك فما أنا ممن يستعينون بالجواسيس وأنا لا أخافهم وانما أستعين بالحق والعدل».

فوقف حسن وهو يقول: «العفو يا مولاي، اني أجل نفسي عن الجاسوسية في هذا السبيل، وانما أنا رسول اليك في مهمة لا أرى مسوغاً للكلام فيها الآن».

قال: «وماذا تعني؟ وكيف لا مسوغ لها؟. قل.. لا بأس مما تراه من الاحوال. من أرسلك الينا من الشام؟. لعلك قادم من عبد الملك بنصيحة؟».

قال: «لا يا مولاي، بل أنا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية».

قال: «وهو أيضاً أموي، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن أعرف منه بالكيمياء والشعر وما الى ذلك».

فقال حسن: «ما كنت احسب الحقيقة تخفى على مولاي أمير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم».

قال: كيف يكون هذا وكلاهما أموي وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا؟».

قال: «أما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد. ولو عرفت ما بينهما من الدخائل لتحققت ان خالدا أرغب في بيعة أمير المؤمنين من آل العوام أنفسهم».

فقال عبد الله وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف: «وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذي أمر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ثم احترقت وأعدنا بناءها؟».

فقال حسن: «صدقت يا مولاي انه ابن يزيد بن معاوية، ولكن لا يخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لايزال محاصراً البيت الحرام وأنتم فيه، وهو لا يعلم بموت

خليفته يزيد، وقيل انكم عرفتم بموته قبله، واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه في شأن الخلافة».

فقطع عبد الله كلامه وقال: «اظنك تعني انه عرض علي البيعة بعد موت يزيد؟».

قال حسن: «نعم يا مولاي ذلك ما أعنيه، ولو أنك اجبته الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك».

فتقطب حاجبا عبد الله بغتة كأنه تذكر أمراً يؤلمه ذكره وقال: «ولكنه أراد أن أذهب معه الى الشام، وأبى الا أن تكون البيعة هناك».

قال: «وما منع مولاي ان يذهب الى الشام، انك لو ذهبت معه اليها وقربته منك لم يختلف عليك أحد».

فأسرع عبد الله في قطع الكلام لأنه لا يحب أن يتذكر الخطأ الذي ارتكبه في ذلك ولولاه لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بني أمية لشدة اضطراب حال بني أمية في ذلك الحين.

وقال لحسن: «ثم ماذا؟. أوصلنا الى حديث خالد».

قال: «لما مات يزيد بايع أهل الشام ابنه معاوية (الثاني) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبني أمية حقاً في الخلافة كما صرح جهاراً في خطابه بعد أن تولاها بأربعين يوماً، فانه أمر فنودي: (الصلاة جامعة). فلما اجتمع الناس وقف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد، فاني ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب، حين استخلفه أبوبكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا . ما كنت لأتزودها ميتاً وما استمتعت بها حياً) . ثم دخل داره وتغيب حتى مات .

فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه ، واضطربت الأحوال حتى آل الأمر إلى مبايعة مروان بن الحكم لأنه اكبر بني أمية سناً. وكلنا نعلم شأن هذا الرجل في أمر عثمان وكيف انه قد أوقد جذوة تلك الفتنة التي لم نتخلص من عواقبها الى اليوم. وهكذا تولى الخلافة مروان دون خالد بن يزيد الذي كان أحق بها منه، بحكم نظام الوراثة الذي وضعه جده معاوية. على ان بني سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم على انه يجعل الخلافة بعده لخالد. فلما تولاها مروان حدثته نفسه أن يخرجها من نسل معاوية الى نسله، فتزوج أم خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة. واتفق بعد بضعة اشهر أن مروان ناظر خالدا في شأن وشتمه وأهان أمه، فخرج خالد الى امه وأطلعها على ما كان فقالت له: (دعه فانه لا يقولها بعد اليوم). وفي المساء جاءها مروان وسألها: (هل اخبرك خالد بما جرى بيننا). فقالت: (يا أمير المؤمنين، خالد أشد تعظيمًا لك من أن يذكر لي خبراً جرى بينك وبينه). فلما أمسى المساء وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هي وجواريها حتى مات ولم يتم السنة في خلافته، والناس يظنونه مات

حتف أنفه. فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالامر، ولكنه خشي اذا انتقم لأبيه ان يفتضح أمره ويقال ان امرأة قتلته. فظل حاقداً على خالد، وظل خالد ينظر اليه نظره الى مختلس. ولهذا قلت لمولاي أمير المؤمنين ان خالداً أرغب من آل العوام في خلافتك» .

■

لما فرغ حسن من كلامه، أطرق عبد الله طويلا، وشعر حسن وابن صفوان بما يجول في خاطره في أثناء ذلك الصمت الطويل. ثم رفع رأسه بغتة ونظر الى حسن وقال: «لقد فات الوقت. ما يقدم فهو كائن. على اني ما أظن خالداً يرضى بخروج هذا الأمر من بني أعمامه الى رجل حاربه أبوه عليه. ولا ارى ثمة مسوغاً لذلك». ثم استدرك فقال: «ولكنك لم تذكر بعد ما هو الامر الذي جئت لأجلة ؟» .

فقال حسن: «انه أمر لا يستحسن الخوض فيه الآن!» .

قال: «بل قل» .

قال: «لقد بعثني خالد الى أمير المؤمنين خاطباً»

قال «من؟ ولمن؟» .

قال: «مولاتي رملة أخت أمير المؤمنين، الى مولاي خالد بن يزيد. وقد كتب بذلك كتابا فقدته في المدينة لسبب يطول شرحه» .

فوقع الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لما بينه وبين بني أمية. على انه لما تذكر ما سمعه من حسن مال الى تصديق الامر، وان بقي مرتابا في حقيقة مهمته، فقال له : «اذا كان خالد كما وصفت فاني أرحب بمصاهرته ، وكنت أود الاطلاع على كتابه . وليس هناك ما يدعو الى العجلة والحال على ما ترى . فلنصبر حتى يقضي الله بيننا وبين هذا الطاغية الذي يرمي بمنجنيقاته بيت الله ولا يخاف عقابا» .

فقال حسن : «ذلك ما دعاني الى التردد في تبليغ الرسالة ، ولكن يكفيني ما علمته من رضاكم، رغم اني لا أحمل كتاب خالد. وسأكتب اليه لأطمئنه بالقبول ولكي يرسل كتابا آخر في هذا الشأن . ثم اني اعرض على مولاي ان أكون في خدمته لعلي أستطيع أمرا يكون فيه مصلحة له. فهل ترى أن أذهب الى الحجاج فأكلمه في شأن الهدنة أو الصلح فربما كان لكلامي وقع عنده لأني أعد من أنصار بني أمية فلا يرتاب في اخلاصي ؟» .

فقطع عبدالله كلامه وقال : «لا . . لا . . دعهم وما يفعلون، اني لا أريد وساطة لدى عبد ثقيف » . قال ذلك ووقف، فوقف حسن وحياه ثم انصرف من غير الباب الذي دخل منه، وكان الليل قد أرخى نقابه فتبعه ابن صفوان وناداه قائلا : «رويدك يا أخا العرب» .

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه، فأمسك هذا بيده وأدنى فمه من أذنه وقال همسا : «تعال معي».

فمشى معه حتى دخلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخله غرفة خالية وقال لـه : «سمعتك تعـرض على أميـر المؤمنين التوسط لدى الحجاج فـي المهادنـة أونحـوها وأميـر المؤمنـين لـم يقبـل ذلـك انفـة منـه. ولكننـي أعلـم مـا نحـن فيـه مـن الضنك، وان المهادنة تفيدنا في لم شعثنا لأننا قد تشتتنا . لا أقول ذلك خوفا من الموت فاننا لارغبة لنا في هذه الحياة، وانما نحن نطلب الآخرة وبنو أمية يريدون هذه الحياة الفانية ويسفكون الدماء من أجلها. فاذا رأيت ان تقوم بهذه المهمة فافعل».

قال : «سأسعى في ذلك جهدي، ولعلي أوفق الى ما فيه الخير ان شاء الله».

فقال ابن صفوان : «انزل الآن في دار الأضياف إذا شئت، أو أنزل في داري». فقال حسن : «بل انزل في دار الأضياف ريثما أدبر الأمر».

قال : «ولكن الليل أدركنا ، فامكث عندنا الليلة، فاذا أصبحنا خرجت الى حيث تريد».

فتذكر حسن بلالا والجمل، وكان قد تركهما بباب المسجد فقال : «ان خادمي ينتظرني بباب المسجد والجمل معه، وأخاف ان يستبطئني فيظن أن قد مسني سوء».

فقال ابن صفوان : «انه اذا استبطأك، فسينام حيث هو ، وفي الغد نراه».

فأطاعه حسن وبات عنده. وقضى معظم الليل يفكر في أمر ابن الزبير وفي مسيره الى الحجاج، ثم أدركه النوم فرأى في منامه انه لقي الحجاج وجادله في أمر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق، فسمع من الحجاج كلاما غليظاً، فأفاق في الصباح وهو منقبض النفس.

ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه ان يسير معه الى بيت الاضياف فقال حسن : «أرى ان أبحث عن الخادم والجمل ».

فقال: «لا خوف عليهما ، هلم بنا الى دار الاضياف لتعرفها فانها بجانب بيت أمير المؤمنين ، ثم تذهب بعدئذ الى حيث تشاء».

■

سار ابن صفوان مع حسن حتى أدخله دار الاضياف ، واتجه هو الى بيت عبد الله . ورأى حسن في الدار اناسا لم يعرف احدا منهم، فجعل يتفرس في الوجوه لعله يرى خادمه بينهم، فلما لم يجده هم بالخروج الى مواقف الدواب عسى ان يجده مع جمله هناك ، ثم رأى بلالا مقبلا

والبغتة بادية في وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضائع ، وما كاد بلال يراه حتى سارع اليه وقال : «أين كنت يا مولاي. ان سيدي أبا سليمان يبحث عنك».

فبغت حسن لذكر ابي سليمان لعلمه انه فارقه في المدينة وقد عهد اليه في تنسم أخبار سمية، فقلق لمجيئه ونهض وقال : «أين هو؟ ».

قال : «تركته في المسجد وجئت للبحث عنك، فهل أدعوه اليك ؟».

قال : «بل أذهب انا اليه». وهم بالخروج فرأى أهل الدار في هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم ، فوقف مع الواقفين وسأل احدهم عن القادم ، فقال له : «ان ذات النطاقين قادمة الى دار الاضياف».

فعلم انها اسماء بنت أبي بكر، ام عبد الله بن الزبير، وكان يحسبها قد ماتت لكبر سنها لأنها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة. فهي يومئذ قد بلغت المائة من عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة الصدر وصحة الدين. فأحب ان يراها فجعل يتطاول حتى أقبلت فاذا هي قد احدودب ظهرها وعميت ، وجاءت تتوكأ على عكاز ، وبجانبها رجل يسندها ويرشدها الى الطريق. ورأى الناس يدنون منها ويقبلون أطراف ثوبها تبركا بها، حتى إذا أقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : «خافو الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلا في الأسواق فان الله كفيل بطعام الغد».

فعجب حسن لاهتمام ام الخليفة بأمر الاضياف على عجزها وضعفها ، ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبد الله فظنها جاءت تحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن أهلها . ولا شك في انها كانت قلقة على ابنها عبد الله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم.

وبعد ان مر موكب ذات النطاقين، خرج حسن ومعه بلال وسارا الى المسجد ، وسارع حسن الى لقاء أبي سليمان. فحياه وقال : «ما وراءك يا عماه ؟».

قال : «ان ما ورائي ذو بال يا بني».

فبغت حسن وقال : «وما هو؟ . قل يا عماه . هل أصاب سمية سوء ؟».

قال : «لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة ». قال حسن : «جاءت الى هنا ؟ وأين هي ؟».

قال : «اصبر ريثما نجلس في بعض جوانب المسجد على انفراد وأقص عليك الخبر».

وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق، فانتحيا ركنا فيه. وحسن في قلق شديد فلما جلسا قال : «قل يا عماه اين سمية الآن فقد نفد صبري . وكيف جاءت مكة ؟».

قال : «انها جاءت مكة ، ولكنها الآن خارجها» ، فانتبه حسن وقال : «لعلها عند الحجاج ؟» .
قال : «نعم يا بني انها عنده » .
فصاح وهو لا يعي ما يقول وما في المسجد من يسمعه غير أبي سليمان : «وكيف كان ذلك ؟ أفصح بالله» .
قال : «أخذها زوجة له ، لأن أباها عرفجة زفها اليه يوم سفرك ، وأرسلها مع الحملة التي بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل المدينة» .
فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بذهول ، وتذكر انه شاهد تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج يحرسه فارسان فارتعدت فرائصه وهز رأسه وقال : «أعوذ بالله ! . أأرى سمية تساق الى الحجاج وأبقى واقفا انظر الى هودجها ولا انقذها ؟ . ولكنني لم أعرفها ولا بد من انقاذها من يد ذلك الظالم ، ومن يد ابيها الخائن الغادر قبحه الله» . ثم التفت الى أبي سلمان وقال : «وهل سيقت الى الحجاج برضاها ؟» .
فقال ابو سليمان : «ما أظنها الا سيقت مرغمة . فقد علمت ان أباها احتال في اخراجها من المنزل الى ضواحي المدينة وسلمها للجند المعسكرين هناك» .
قال حسن : «اذن هي الآن أمامنا في هذه الخيام قرب جبل ابي قبيس . لا بد لي من الذهاب اليها ، فاما ان انقذها او أموت في سبيلها» .
فقال أبو سليمان : «اعلم يا بني اني رهين اشارتك وقد قلت لك اني وقفت حياتي على خدمتك ، فاذا رأيت ان تبعثني في شأنها فافعل » .

فصمت حسن مفكرا ثم قال : «انني احتاج اليك يا عماه في ابلاغ رسالة الى مكان بعيد» .
قال : «اني على استعداد للذهاب الى السند في خدمتك» . قال : «لا . . بل الى الشام ، الى خالد بن يزيد ، فهل تقبل ؟» .
قال : « أفعل إن شاء الله ، أين الرسالة ؟ » .
قال : «أكتبها اليه الآن وهي خاصة بالمهمة التي جئت لأجلها » .
قال : «أكتب وأنا بين يديك» .
فأخرج حسن من جيبه منديلا من القباطي (نسيج مصري) وكان قد اعد دواة وقلما في جيبه لمثل هذه الغاية . وجلس على حجر بجانب إحدى عضادات المسجد فكتب أسطراً قال فيها :

«الى خالد بن يزيد من حسن . أما بعد فقد جئت البيت الحرام بعد ان مررت بالمدينة وأضعت فيها كتابك ، ولهذا حديث سأقصه عليك عند اللقاء على اني واصلت السفر الى مكة

ولقيت ابن الزبير وأبلغته الامر خلال اشتغاله بالحصار وضيق ما حوله ، فأجاب بالرضاء. ولكنه رأى ان تبعث اليه بكتاب آخر في هذا الشأن، فاذا شئت فافعل ، وابعث الكتاب اليه مع حامل هذا اليك ، وأنا باق هنا يهمني كثيرا ، والسلام عليكم ورحمة الله».

ثم سلم الكتاب الى أبي سليمان وقال له : «أمض على عجل ، واحذر ان يعترضك الحراس حول مكة».

قال : «لقد دخلت ولم ينالوا مني مأربا ، وسأترك بلالا في خدمتك لعلك تحتاج اليه في شيء».

فأثنى عليه وودعه، وعاد الى ما كان فيه من الاهتمام بأمر سمية، فرأى أن يذهب إلى معسكر الحجاج يبحث عنها ويستطلع خبرها. وكان كلما فكر في الأمر، وتصور انها زفت الى الحجاج، اضطرب وثارت أشجانه واشتد قلقه، حتى لم يعد يستطيع صبرا فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة في شأن وقف الحرب، ولكنه لم ير بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير. فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده، فالتمسه في دار ابن الزبير، فلم يجد أحدا في القاعة التي كان الاجتماع فيها بالامس، وبينما هو مار بالقرب من مرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة وقع نظره على رجل كان في خدمة ليلى الاخيلية، فتوسم فيه الخير وناداه وقال له : «ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟».

قال : «جئت مع مولاتي».

قال : «ليلى هنا الآن ؟ وأين هي ؟».

قال : «هي عند أمير المؤمنين في بيته ، وأظنها في حجرة امه ذات النطاقين».

قال : «ومن أين أتيتم ؟».

قال : «من معسكر الحجاج».

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه بأن ليلى لا بد ان تكون قد رأت سمية هناك وسمعت منها شيئا ، فلم يعد يصبر على لقائه ليلى وأخذ يتمشى خارج البيت، وكلما سمع حركة او صوتا ظنها خارجة ، حتى مل الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : «هل أقمتم بمعسكر الحجاج طويلا ؟».

قال : «أقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتي اسرعت الى مكة ، وأرسل الحجاج معنا من أوصلنا اليها لئلا يعترضنا الحراس المحيطون بها».

فأدرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج فزادت رغبته في مقابلتها واستطلاع حقيقة

الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان خارجا من الدار مهرولا . فلما تلاقت نظراتهما أقبل عليه ابن صفوان وقال : «أحمد الله على اني رأيتك هنا، فقد كنت ذاهبا للبحث عنك مخافة ان تكون قد مضيت في الامر الذي ندبت نفسك له بالامس».

قال حسن : «وماذا تعني ؟».

قال : «أعني مقابلة الحجاج».

قال : «وما الذي حدث ؟».

قال : «لقد جاءت ليلى الأخيلية من عنده، لمثل ذلك الغرض . وقد سمعت من أمير المؤمنين انه لا يرى صلحا ولا هدنة، لأن الحجاج لا يريد منه غير الاستسلام، وهذا أمر مستحيل عندنا والموت أهون منه».

فقال حسن : «وأين هي ليلى الآن ؟».

قال : «في دار النساء وقد نزلت عند مولاتي ذات النطاقين، ورملة بنت الزبير عندها ايضا».

قال : «هل من سبيل الى مقابلتها ؟».

قال : «ذلك يسير. هل أخبرها بأنك تطلب مقابلتها ؟».

قال : «افعل».

سمية في بيت الحجاج

دخل ابن صفوان ، ثم عاد وأشار الى حسن ان يتبعه ، فدخل وراءه غرفة رأى فيها ليلى وحدها في انتظاره، فلما أقبل عليها قالت: «إذن أنت حسن حقا؟ . كيف اذن أكدوا لي أنك قتلت؟» .

فابتسم وقال : «كدت أقتل ، ولكنني حي الأن فأخبريني هل كنت في معسكر الحجاج؟» .

قالت : «نعم» .

قال : «وهل رأيت سمية هناك ؟» .

قالت : «نعم رأيتها» .

فخفق قلبه عند سماع جوابها وعاد يسألها قائلا : «هل رأيتها حقيقة ؟» .

قالت : «رأيتها ورأتني ، وكلمتها وكلمتني !» .

قال : «بالله كيف حالها ؟ وما الذي جرى لها ؟» .

قالت : «أراك غائبا عن الدنيا ؟ ألم تعلم انها حملت الى الحجاج لتزف اليه ؟» .

فلما سمع ذكر الزفاف صعد الدم الى وجهه وقال وهو يظهر التجلد : «نعم علمت ، ولكن هل زفت إليه حقا ؟» .

قالت : «زفت اليه منذ يومين، وهي الآن في داره مع نسائه» .

قال : «في داره مع نسائه ؟ . اذن صارت زوجة له ؟» .

قالت : «نعم» .

قال : «وهل ذكرتماني في حديثكما ؟» .

قالت : «ذكرناك وبكينا عليك وهي التي أخبرتني بموتك» .

قال : «وهل هي آسفة على موتي ؟» .

قالت : «أما قلبها فمعك، فهي لا تفتر عن ذكرك لحظة مع يأسها من لقائك، لا يهنأ لها العيش مع احد غيرك» .

فأبرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك وقال : «اذا كان الحجاج عقد قرانه بها كما تقولين، ويئست من لقائي فكيف القاها ؟».

قالت : «الحب كله رجاء يا حسن ، بل الحب يضع الرجاء في موضع اليأس».

قال : «أباقية هي على حبي ؟».

قالت : «نعم وهي مع ذلك لا ترجو لقاءك فكيف اذا علمت بأنك حي ؟ . فهل انت تحبها مثل حبها لك ؟».

قال : «كيف لا ؟» . . وهاجت أشجانه ولم يعد يستطيع صبرا على الذهاب اليها وأحس انه مقصر في حق سمية ، وهان عليه ان يضحي بنفسه لانقاذها . وكلما تصور انها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه وكادت الغيرة تحرقه ، فأطرق برهة ثم قال : «وهل زفت الى الحجاج حقيقة ؟».

قالت : «قلت لك أنها زفت اليه وهي في داره مع سائر نسائه».

قال : «أعوذ بالله ! . ولكن قلبي لا يصدق انها في بيته مثل احدى نسائه . وهل يحبها هو ؟».

قالت : «يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بحصوله عليها لأنها لا تريده ، ولكن المقادير ساعدته فحملوها اليه قسرا».

فاضطرب وجمد الدم في عروقه وقال : «اني أطير اليها وأختطفها من وسط بيته ومن بين مخالبه !».

فقطعت ليلى كلامه وقالت : «تبصر يا حسن ، ان دون الوصول اليها عقبات لا يستطاع تجاوزها الا بالحكمة»

قال : «وأي حكمة ؟ كيف يمسها الحجاج وانا حي ؟ . ليس في الحب حكمة. الحب شيء والحكمة شيء آخر . ان الرجل اذا أحب، خضع لقوانين الحب وحدها ، وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا رياء».

فلما رأت ليلى شدة هياجه اشفقت على حياته مما يعترض السبيل الى سمية من الاخطار ، ولا سيما انها عند الحجاج الذي اشتهر بالظلم والجبروت. فاذا وقع حسن بين يديه فلن يعفيه من القتل ، فقالت له : «اني معك في ان الحب لا سياسة فيه ولا حكمة ، ولكن المحب ينبغي ان يحرص على حياته لأجل حبيبه ، فيجب ان تحرص على حياتك لأجل سمية. تبصر في الامر يا بني، وسأكون في عونك حتى تبلغ ما تريده ، فاني اعرف قيمة الحب ويسوءني ان يفرق احد بين حبيبين، بل اني لانقم على من يسعى في التفريق بينهما! ». قالت ذلك وتنهدت وأشرق الدمع في عينيها.

فأدرك حسن انها تنطق عن احساس صادق لأنها أحبت تربة ومنعوها منه فقال : «بورك فيك يـا ليلى فلقد خففت من شدة بلواي ، فأشيري علي بما ترين».

فقالت : «اني وفدت على الحجاج في معسكره، على عادتي في الوفود على الامراء، فرحب بي وأنزلني في دار اعزّ نسائه عليه، وهي هند بنت النعمان. ولعلك تعلم انها جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تحبه ولا تحترمه، فلقيت سمية عندها، وتحدثت معها في شأنك فلما أنبأتني بفقدك شق ذلك علي، واعْتزمت ان استطلع خبرك في مكة، فعرضت على الحجاج ان آتي اليها واحاول اقناع ابن الزبير بالاستسلام، مع اني أعلم ان استسلامه مستحيل . فلما جئت مكة علمت انك جئتها بالامس، وخطبت رملة لخالد فقبل ابن الزبير ولكنه استمهلك ريثما تنقضي الحرب. فكان سروري مزدوجا بسلامتك ونجاحك في المهمة التي جئت لاجلها. وأرى ان أعود الآن الى معسكر الحجاج وأجعلك راويتي، وانت تعلم ان لكل شاعر عربي راوية يرافقه فيحفظ اشعاره ويرويها عنه. والحجاج لا يعرفك ، فلن يخطر بباله انك مناظره على سمية، ومتى وصلنا الى المعسكر وأقمنا به، تفكرنا في أمر سمية، وأسأل الله التوفيق».

فاستحسن حسن رأيها وقال : «اذن هلم بنا الآن ، فاني لا أصبر على هذه الحال».

قالت : «اسبقني الى المسجد ريثما أودع ذات النطاقين وألحق بك».

قال : «لقد أنساني حديث سمية استطلاع ما دار بينك وبين ابن الزبير في أمر الصلح أو الاستسلام».

قالت : «كنت على يقين من انه لن يقبل ، وقد رأيت امه أسماء ذات النطاقين أكثر منه تشددا ، واني لاعجب لهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات في دعوته . على اني وقد رأيت معسكره ومعسكر الحجاج، لا أشك في ان ابن الزبير مغلوب ، فالفرق كبير بين المعسكرين في العدد والعدة وكل شيء».

فابتدرها حسن قائلا : «لقد رأيت بعيني أصحاب ابن الزبير واخوته وأهله يتخلون عنه، وقد نفدت قواته وأقواته فالامر خارج من يديه لا محالة».

قالت : «القوة هي الغالبة يا حسن، والخلافة صائرة الى بني أمية. لأن عندهم الرجال والأموال، وقد ساعدتهم الأقدار من كل ناحية».

فقطع حسن كلامها وقال : «ليس يهمني الآن الا أمر سمية، وسأسبقك الى المسجد فأتهيأ للسفر. قال ذلك وتركها وأسرع الى المسجد، فوجد بلالا جالسا بباب حانوت لرجل فارسي يبيع الاقمشة بجوار الصفا . فلما راه بلال نهض وتبعه حتى دخلا المسجد، فقص حسن عليه عزمه على الذهاب الى معسكر الحجاج وأسر اليه الغرض من ذلك.

فقال بلال : «ألا استطيع ان أكون في خدمتك يا مولاي ؟».

قال : «بورك فيك. ولكنني ذاهب في مهمة لا تخلو من الخطر ، واذا انكشف امري فيها فلن ينفعني الرجل والرجلان ، على اني أرجو التوفيق. فابق انت هنا بضعة ايام ، فاذا لم أعد فاطلبني في معسكر هذا الطاغية ».

تنكر حسن في ثياب غير ثيابه ، وحمل جرابا فيه أدراج من الرق كتب فيها بعض القصائد.

ثم مكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت جملا يقوده خادم ، فركب حسن جمله ، وسارا والخادم يمشي وراءهما حتى مروا ببيت ابن صفوان وكان واقفا بالباب فرأى ليلى وعرفها ، وتفرس في حسن فعرفه كذلك رغم تنكره ، فحياهما وقال : «الى أين ؟». فقال حسن : «لقد عزمت على أن أبدأ السعي في سبيل التوفيق».

فهز ابن صفوان رأسه وتنهد وقال : «أسأل الله لكما السلامة».

وما لبث حسن وليلى ان ابتعدا عن بيت ابن صفوان ، وخرجا من مكة حتى لقيهما رجال الحجاج ، فعرفوا ليلى ولم يعترضوهما ، فواصلا السير حتى أقبلا على معسكر الحجاج.

نظر حسن الى المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة ، فعظم امر الحجاج في عينيه وقال : «يا ليلى ان الامر صائر الى هذا العاتي لا محالة. واني لينفطر قلبي كلما تصورت مصير عبد الله بن الزبير. أتظنينه مغرورا بنفسه ؟».

قالت : «كلا ، ولكنه يعتقد انه على الحق».

قال : «ما الذي أراه على جبل ابي قبيس ؟».

قالت : «ألم تر وقوع الاحجار على الكعبة ؟ ان الحجاج نصب منجنيقاته على الجبل وهو يرمي الحجارة منها على الكعبة. ومع المنجنيقات فصيلة من الجند».

قال : «وأين خيام النساء التي تقيم بها سمية ؟».

فقالت : «نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج ، وهي الكبيرة القائمة في وسط هذه الخيام ، وسأدخل انا ثم أخرج وأسير بك الى مكان أعرفه ، وأذهب الى هند بنت النعمان فأرى سمية هناك وأقص عليها قصتك ، واتفق معها على موعد تلتقيان فيه خارج المعسكر». وما زالا سائرين حتى اقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا امامها اناس بالحراب ، وآخرون بالسيوف ، وهم أشبه بالحراس عند الروم ـ وكان بنو امية قد اقتبسوا نظام الحرس من الرومان وتوخاه عمالهم ارهابا للناس ـ وقبل وصولهما الى الباب اناخا الجملين ، ونزلا فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير في أثرها حتى وقفت بباب الخيمة ، فدخل احد الحراس يستأذن لها ثم عاد يدعوها الى الدخول ، فدخلت وظل حسن مع الواقفين بالباب وهو في شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم أعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته

من باب الخيمة. فاذا هو جالس في صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذيه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه وأداره على جنبه. ورآه لما دخلت ليلى رحب بها بصوت أرق مما كان يتوقعه، وكان الحجاج رقيق الصوت الا اذا استفاض في الخطابة فيرتفع كثيرا. وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى فاذا هو أخفش العينين، مقطب الوجه، ولم يجد في وجهه قبولا للابتسام أو الضحك.

■

لاحت من حسن التفاتة الى جلساء الحجاج، فرأى رجلا لم يكد يتبينه حتى اضطربت جوارحه واستعاذ بالله من رؤ يته فقد كان عرفجة ابا سمية، وقد جلس بجانب الحجاج يقضي ويمضي وله الحول والطول. وأدرك حسن ان عرفجة لم ينل هذا المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت عواطفه وحدثته نفسه بأن يفتك به انتقاما منها. ولكنه ما لبث ان عاد الى رشده وعلم بما يحيط به من الاخطار فأشاح بوجهه الى خارج المعسكر لئلا يلاحظ احد عليه شيئا. كما خشي ان يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة أخرى، فمشى متظاهرا بأنه يسير على غير هدى حتى بعد عن خيمة الحجاج.

ثم سمع ليلى تناديه فسار اليها وتبعها والجراب معلق في كتفه بوصفه راويتها. وبعد ان قطعا مسافة في المعسكر قالت: «أنظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم، فأقم بها ريثما آتيك أو أبعث اليك».

قال: «وسمية ؟.. الا أستطيع رؤ يتها الآن ؟ خذيني معك بوصفي خادما لك أو تابعا او أي شيء لأرى سمية».

فرق له قلب ليلى وقالت له: «سر في أثري حتى ندخل مضرب خيام النساء واجعل كأنك تحمل لي هذا الجراب حتى تضعه في الخيمة التي نحن سائرون اليها، ومتى وصلنا ادبر لك حيلة لمشاهدتها ومخاطبتها».

فرقص قلبه فرحا ونسي كل خطر في سبيل شوقه لرؤ ية حبيبته. وبعد هنيهة وصلا الى خباء له عدة ابواب وحوله خيام اخرى صغيرة، فعلم انه خباء اهل الحجاج، وقالت ليلى: «امكث تحت هذه النخلة ومتى دعوتك فادخل». وكانت الشمس قد مالت الى المغيب، فجلس هناك وقلبه يدق وعيناه شائعتان.

ودخلت ليلى الخباء وهو أقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب في بناء الاخبية، فدخلت القسم الذي فارقت هندا فيه فرأتها وسمية جالستين لا تتكلمان. ولما رأتاها رحبتا بها، وآنست في وجه هند انقباضا فقالت: «ما لهند غضبى ؟». فأجابت سمية بقولها: «ومن ذا

الذي يقترب من النار ولا يحترق بها. ان ظلم هذا الجبار العاتي ليصل حتى الى أهل بيته».

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج، فلم تستغرب ذلك، ولكنها اغتنمت الفرصة وأجابت سمية قائلة: «أراك تشكين من الحجاج وقساوته وأنت لم تعرفيه الا بالأمس، وهو مغرم بك، ولا يكاد يصدق انه حصل عليك».

فقطعت كلامها وقالت: «لم يحصل ولن يحصل على شيء باذن الله».

فقالت: «ولكن هذا بعيد وأنت في داره وبين يديه ليلا ونهارا».

فأشارت بعينيها كأنها تكتم أمرا لا تريد ان تبوح به أمام هند.

فاستغربت ليلى قولها وتظاهرت بأنها تريد مخاطبتها في شأن فدخلت بها الى خيمتها الخاصة، فاستقبلتها امة الله جارية سمية وكانت تهيىء الطعام، ثم خرجت من الخيمة لبعض شأنها. فلما خلا المكان قالت ليلى: «رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منه وهو زوجك الشرعي، فضلا عما له من السلطان النافذ عليك، فكيف تقولين انه لم يحصل على شيء ؟».

وكانت سمية قد جلست على حصير من سعف النخل، وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهي تسمع كلام ليلى. فلما سمعت سؤال ليلى بدت الحيرة على وجهها وامتقع لونه امتقاعا شديدا وبقيت تنظر الى الارض وليلى تفكر في ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هذا الانفعال فقالت: «مالي أرى سمية ساكتة لا تجيبني عن سؤالي ؟ كيف تقولين انه لم يحصل عليك وأنت بين يديه ؟».

فرفعت سمية رأسها وقد بدا التأثر في عينيها وشفتيها وقالت: «صدقيني يا ليلى، انه لن يحصل مني على شيء رغم عقد قرانه بي. ولم يكن تفضلا منه لأنه أجبر عليه لقسم سبق به لسانه. وأما كونه لن يحصل علي فقد اعددت وسيلة أنجو بها منه الى حبيبي . . ». قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فأرسلت دموعها وهي صامتة لا تشهق ولا تتكلم، فازداد عطف ليلى عليها، ولكنها استغربت ما سمعته منها عن الوسيلة التي أعدتها للنجاة. فقالت: «وأي وسيلة اعددت ؟ وأين هو حسن الآن ؟».

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب، وهمت ليلى بأن تطمئنها عن حسن ولكنها خشيت ان يصيبها سوء من المفاجأة. فقالت: «اذا كنت تحبينني فلا تخفي علي سر هذا الامر، فقد رأيت مني كل اخلاص وأنا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتي. قولي، ولا تخفي علي شيئا».

فقالت وهي تمسح دموعها: «أما سبب كونه لم يحصل على شيء مني، فذلك انه أراد ان يطوف الكعبة آخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك، فأقسم الا ينزع سلاحه ولا يقرب نساءه ولا الطيب حتى يقتله».

فتذكرت ليلى انها كانت لا ترى الحجاج الا مدججا بسلاحه حيثما كان ليلا ونهارا. واعتزمت ان تفضي الى حسن بذلك لعلمها انه يشرح صدره، ثم قالت لسمية : «وما هي الوسيلة التي دبرتها للنجاة منه في المستقبل ؟».

فمدت سمية يدها الى جيبها فأخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فاذا في داخلها قطعة رق ملفوفة على هيئة درج، فتبادر الى ذهن ليلى انها كتاب. ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين أصابعها وقالت : «ان الفرج يأتيني من هذا الدواء !».

فقالت ليلى : «وما ذلك ؟».

فقالت : «هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فيذهب بي الى مكان أرجو ان ألاقي حسنا فيه».

فرأت ليلى ان تبوح لها بالسر فقالت : «وما قولك اذا لاقيت حبيبك وأنت حية ؟».

فتفرست سمية في وجه ليلى وهي تحسبها تمازحها وقالت : «لا تحببي الحياة الي، فان لقائي اياه في العالم الآخر خير وأبقى أما هنا فلا امل لي في ذلك».

قالت : «لا تقطعي الأمل يا سمية».

فأجابت وهي تحسبها تخفف عنها : «لا أبالي أقطعت الامل ام لم اقطعه ، فان مدة عذابي في هذا العالم اصبحت قصيرة ، ولا بد من انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائي في هذه الصرة، واذا مات» . ثم تنهدت وأكملت حديثها فقالت : «ولكن ما الفائدة من بقائي حية وحدي ؟».

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد في غنة صوتها : «اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لان حسنا حي !»

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرس في وجه ليلى ، فرأت الجد باديا في عينيها فوثبت من مجلسها وقالت : «بالله أعيدي ذكره وعلليني ببقائه . قولي انه حي فان ذكره يحييني !».

قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت : «ولكن ما الفائدة من التعلل بالأحلام ؟».

فقالت ليلى : «لسنا في حلم، وانما نحن في يقظة ، وقد آن لك ان تري حسنا انه في انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوه اليك لتلتقيا». ثم خفضت صوتها وقالت: «وتتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر، ولا خوف من مجيء الحجاج الى خيام النساء ما دام قد أقسم لا يقربهن».

■

وكانت سمية تسمع قول ليلى وهي لا تكاد تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ولا سيما

بعد ان سمعت ان حسنا بقرب خبائها ، فهرولت الى شق في الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر أحدا ، فنادت امة الله فأسرعت اليها وقد انارت السراج ودخلت حتى وضعته على المسرجة فقالت لها سمية : «هل رأيت احدا جالسا حول هذا الخباء ؟».

قالت : «كلا يا مولاتي ولكنني رأيت رجلين مرا معا وخرجا من المعسكر».

فقالت ليلى : «هل رأيت أحدهما يحمل جرابا ؟».

قالت : «أظنني رأيت مع احدهما شيئا كالجراب».

فأسرعت ليلى وسمية في أثرها وأطلتا من باب الخباء فلم تريا أحدا، فتحولت ليلى نحو المكان الذي اجلست فيه حسنا فلم تر له أثرا، فأسقط في يدها، وفكرت في سبب ذهابه ومن يكون الرجل الذي ذهب به فلم تهتد الى حل.

أما سمية فخامرها شك في قول ليلى، ولكنها تحققت صدقها لما بدا في عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من أمارات الانقباض ، فقالت لها : « أين عسى ان يكون حسن الآن ؟».

فقالت ليلى ان ذهابه لا بد ان يكون لامر ذي بال، فقد جاء معي وهو لا يكاد يصدق انه يحظى برؤيتك ، وما أظنه تحول من هذا المكان بارادته . ولعله يعود الليلة فلنترقب رجوعه. ولكن من يكون رفيقه الآخر وهو غريب في المعسكر وقد جاء اليه متنكرا ؟».

ثم دخلتا الخباء، ومكثت سمية مطرقة مستغرقة في الهواجس وهي مرهفة سمعها فاذا هب النسيم ظنت حسنا قادما فيضطرب قلبها . وخرجت ليلى الى خباء هند وهي تكتم ما في نفسها لعلها تستطيع شيئا جديدا.

أما سمية فنادت امة الله وكانت انيستها في وحشتها وعزاءها في احزانها والمطلعة على مكنونات قلبها. فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها فأعادت الصوت فلم يجبها أحد، فاستعاذت بالله من تلك الليلة، وخرجت الى حيث تتوقع ان تراها فرأت في الظلام شبحين عرفت منهما امة الله ، ورأت الثاني بلباس الرجال فخفق قلبها وتوقعت ان يكون حبيبها فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت : «امة الله ؟».

فقالت : «لبيك يا مولاتي اني قادمة على عجل». قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل، فقلقت سمية ولم تعد تستطيع صبرا وهمت بالمسير نحوهما فرأتهما قادمين فتقهقرت حتى وقفت بباب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على وجه القادم مع أمة الله فتعرفه ، ولكنه ظل واقفا على بضع خطوات من الخباء ، ثم تبينت انه بلباس حرس الحجاج، فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وأمة الله في اثرها. فابتدرتها قائلة : «لا تخافي يا مولاتي ان الرجل رسول خير».

قالت : «ممن ؟».

قالت وقد خفضت صوتها: «من حسن».
فبدت البغتة في وجهها وقالت : «ليدخل».
فخرجت امة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس. ولم تكن ملابس الجند قد تميزت يومئذ عن ملابس سائر الناس تمييزا تاما. غير ان حرس الامراء الامويين كان لهم لباس خاص بهم، اقتبسه معاوية من الروم مع علامات خاصة ، فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره.
أما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض : «لا يزعجك امري يا مولاتي ولا يخيفك هذا اللباس فاني خادم لك ولمولاي حسن».
فلما سمعت صوته تفرست في وجهه فعرفت انه عبد الله خادم حسن فصاحت فيه : «انت عبد الله ؟».
قال : «نعم يا مولاتي اني خادمك عبد الله».
قالت : «وما الذي جاء بك الى هذا المعسكر؟ وأين حسن ؟ . أهل هو حي كما يقولون ؟». قالت ذلك وشرقت بدموعها.
فقال : «نعم يا سيدتي انه على قيد الحياة، ولم أكن أعرف ذلك الا هذه الساعة، وكنت قد يئست من حياته مثلك ولكن الله أنعم علينا بنجاته. فالحمد لله ».
قالت : «وأين هو ؟».
قال : «انه مختبىء على مقربة من هذا المكان حتى لا يراه احد، لانه جاء متنكرا ولم ينتبه له الا أبوك، فطلب الى الامير ان يقبض عليه. وقد اطلعت انا على هذه المكيدة فأسرعت اليه وأنبأته بها، وخرجت به الى مخبأ قرب هذا المعسكر، وجئت لانبئك بذلك لنتعاون على استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا في خدمتكما».
فقالت : «سامح الله ابي، بل لاسامحه الله على ما يسومنا اياه من البلاء. لقد اصبحت أكره اسم عرفجة وأكره ان أراه من أجل هذه المعاملة. آه يا ربي ! ما العمل ؟ قل لي يا عبد الله: «هل حسن في مأمن ؟».
قال : «نعم يا مولاتي انه في مكان أمين ولا بأس عليه».
فقالت : «وكيف ادخلت نفسك في زمرة الحراس، وكيف انطلى امرك على الحجاج وعلى أبي ؟».
قال : «ان حكايتي طويلة ، وخلاصتها اني لما يئست من لقاء مولاي حسن في المدينة وكنت قد عثرت على رحله وفيه كتاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير لا بد من ايصاله اليه، رأيت القدوم به الى مكة، فاذا كان مولاي حسن قد سبقني اليها لقيته وسلمته اليه، واذا

لم أجده أوصلت انا الكتاب في أيديهم ، واحتلت لدخول معسكر الحجاج لعلي اتنسم خبرا عن سيدي ، وقد يسر لي الدخول اني من ثقيف قبيلة الحجاج، وهو كثير الثقة في أهل قبيلته ويعرفني من قبل، ولكنني أعلم انه رجل شديد داهية فربما شك في أمري فيامر بقتلي ، فعزمت على ان أتقرب اليه بأن أعطيه الكتاب، ولا سيما اني لم أر فيه فائدة بعد فقد مولاي، وربما تمكنت باقترابي من الحجاج من استطلاع خبر مولاي، فتظاهرت بأني قادم على الحجاج لأمر ذي بال يهمه، وجئت المعسكر وطلبت ان أقابله في خلوة فأذن لي، فلماعرفته بنفسي عرفني. ثم أخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم ان ليس فيه ذكر لمولاي حسن ، وانما هو خطاب من خالد ابن يزيد الى عبد الله بن الزبير في أمر خطبة أو نحوها، فتظاهرت بأني عثرت بالكتاب مع رجل قادم من الشام، ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير شككت في أمره فقتلت حامله، وجئت بالكتاب اليه.

«فلما سمع الحجاج ذلك مني، مع علمه بأني من قبيلته ، أحسن الظن بي وقربني منه وجعلني من حراسه كما ترين. وفي مساء ذلك اليوم قدم أبوك على الحجاج فأطلعه على ذلك وانا واقف ببابه. فلما اطلع ابوك على الكتاب ناداني فدخلت الفسطاط فقال (من أين اتيت بهذا الكتاب ؟). فقصصت عليه الخبر كما ذكرته ، فقال :(ان صاحب هذا الكتاب عدو لنا عرفناه في المدينة وحاولنا قتله، ولكن الذي ذهب لاغتياله لم يعد الينا، فهل قتلته انت ؟). فلما سمعت قوله اطمأننت على حياة مولاي ، ومضيت في اتمام الحيلة فقلت :(لا أعلم أهو الذي قتلته ام لا، ولكنني قتلت شابا بلباس كذا) . وذكرت له ما يقرب من صفات مولاي فقال : (لعله هو وقد احسنت على أي حال). وأدناني أبوك منه ومكثت في جملة الحراس وأنا اتفقد الاحوال وأستطلع الاخبار حتى جاءنا مولاي في هذا النهار مع ليلى الاخيلية وقد تنكر، فعرفته ، ولم ينتبه لي ولا أنا أردت ان يعرفني لئلا ينكشف امرنا . فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان ابوك مع الحجاج في الفسطاط ، فلما خرجت ليلى رأيت علائم الغدر في وجه ابيك، وسمعته يخاطب الحجاج فأصغيت فاذا هو يشير بأصبعه الى ليلى ويقول (ان راويتها جاسوس متنكر). وأشار بالقبض عليه، فعلمت انه عرف حسنا واحتلت في الخروج حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخباء فأخبرني انه جاء من أجلك ، فذهبت به الى خربة وراء هذا المعسكر لا يهتدي اليها أحد ، ووعدته ان آتي اليك وأطلعك على أمره لندبر حيلة للفرار».

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتطاول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها شاخصتان فيه . فلما جاء على آخر الحديث اطمأن قلبها وزال قلقها على حبيبها ، فانبسطت أسرتها وقالت : «بورك فيك يا عبد الله ، انك لنعم الرجل ، واذا أتيح لنا ان ننجو على يدك فستكون

شريكنا في سعادتنا، والا فلا حول ولا . .».

فقال : «ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لا بد من الصبر، فاذني لي في الانصراف الآن، لأعود الى موقفي لئلا يشكوا في أمري. فاذا حدث شيء أو احتجت الى شيء فاني رهين اشارتك. واذا حدث عندي شيء جئتك به». قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له : «الى أين ؟ وكيف تترك حسنا وحده في تلك الخربة ومن اين يأكل وأين ينام ؟».

فقال : «أتظنين اني تركته ولم اعد اليه ؟ . كوني مطمئنة فاني ادبر له كل ما يحتاج اليه». وودعها وخرج.

وتذكرت سمية ليلى، فنادت امة الله وقالت لها : «اين هي ليلى ؟». فقالت : «هي في خباء هند». وخرجت ثم عادت تقول : « لم أجد في الخباء أحدا».

فاستغربت ذلك وقالت : «ألم تسألي الخدم عنها ؟».

قالت : «سألت الخادمة فذكرت لي ان هندا خرجت عند الغروب تتمشى بين الأخبية ، ثم جاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت أثرها ، ولم تعودا من ذلك الحين».

فقالت : «وأين تذهبان في هذا الليل ؟ أخاف ان يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لأنها واطأت حسنا على التنكر». وخافت سمية اذا بالغت في البحث عنها ان تنصرف الشبهة اليها فدخلت خباءها وجلست تفكر فيما مر بها في تلك الليلة من الغرائب. وكلما تصورت انها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحا.

أما عرفجة فانه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه، فتجاهل وانتظر حتى خرجت ليلى ثم طلب القبض عليه كما تقدم. ففوض اليه الحجاج ان يفعل به ما شاء، فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى كبير الحراس وأوصاه بأن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون اثر راوية الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه. وكان عبد الله قد سبق الى حسن وخرج به الى ذلك المخبأ.

فلما لم يعثر الحراس على حسن هناك، عادوا الى عرفجة وأنبأوه بذلك فقال : «الي بليلي فانها في أخبية النساء». فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الأخبية ، فأشاروا اليها ان تأتي الى فسطاط الحجاج. فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف امرها ولكنها لم تر بدا من الطاعة فسارت مع الحراس حتى اتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبابه ، فلم يدخلوا فسطاط الحجاج بل دخلوا فسطاطا آخر رأت في صدره عرفجة جالسا. فلما رأته استعاذت بالله من شر ذلك المساء، ولكنها كانت جريئة لا تبالي بمن تلاقي ، فدعاها الى الجلوس وقال لها : «أين هو راويتك يا ليلى ؟».

فلما سمعت سؤاله أدركت ان أمر حسن قد انكشف فلم تشا ان تشرك نفسها في ذنبه فيقعان معا فلا تعود قادرة على مساعدته ، فعمدت الى الحيلة وقالت : «وأي راوية تعني ؟».

قال : «راويتك الذي يحمل جرابك وقد جئت به اليوم ».

قالت : «وهل دخلت على الأمير ومعي راوية؟ ». قال: «لم يدخل معك ولكنه بقي خارجا، ولما مضيت اقتفى أثرك».

قالت : «وهل يدل ذلك على انه راويتي ؟ وكيف يكون راويتي ولا أدعوه الى الجلوس في حضرة الامير ؟».

قال : «أراك تتنصلين منه ونحن لا نريد به شرا».

قالت : «لا يهمني ما تريدون به ، ولكني جئت الى المعسكر بالأمس وليس معي راوية».

قال : «كان معك رجل يحمل جرابا ».

قالت : «اتعني الرجل الذي يحمل الجراب ؟ لقد التقيت به عند دخولي المعسكر ورأيته يسير بجانبي فلم انتبه لأمره ، ولا أعرفه. . . ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه في خدمتكم فلا حيلة لنا فيكم».

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول : «نحن لم نسيء الظن بك يا ليلى ، وأنت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ، ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا ونحن نحسبه راويتك».

قالت : «وهل الامير ممن يخافون الجواسيس ؟ ان من كان مثله حزما وقوة لجدير بأن يخافه الجواسيس، على أني لو علمت بجاسوس في هذا المعسكر لاطلعت الامير على خبره».

قال : «بورك فيك، وأرجو ان تكوني عينا على هذا الرجل، فاذا رأيته فأنبئينا بمكانه، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على أثر ولعله يظهر غدا فاكتمي هذا الآن». قال ذلك ونهض ، فنهضت ليلى وخرجت من عنده قلقة على حسن، وان سرت لنجاته من قبضتهم. ثم عادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر، فأطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأن بالها.

قضى حسن ليلته في الخربة التي اختبأ فيها بجانب المعسكر ، وهي تطل على الطريق المؤدي الى مكة، ولم يغمض له جفن لشدة قلقه وتشتت أفكاره . وقد عظم عليه ان يخرج من معسكر الحجاج فرارا ولكنه أدرك انه يستحيل عليه النجاة بغير ذلك ، ولبث حتى الصباح وهو يفكر في وسيلة لانقاذ سمية من الحجاج.

وكان عبد الله قد وعده ان يوافيه في مخبئه ليدله على طريقه للفرار ، فقضى ليله في هذه الهواجس، وفي الصباح صعد على أكمة اشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى عبد الله أو

رسولا منه، فراى بينه وبين المعسكر آرضا خالية وتبين المكان جيدا. وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادما على هجين من أطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ثم اقترب الرجل منه فتبين انه خادمه عبد الله ، فاستبشر بقدومه فلما وصل عبد الله ترجل وأشار اليه ان يعود الى الخربة مخافة الرقباء، فقال له حسن : «ما وراءك الآن ؟».

قال : «أبشرك أولا بأن الحجاج لم يقرب سمية وان كان قد عقد قرانه بها».

قال : «وكيف عرفت ذلك ؟».

قال : «عرفته عن ثقة، فقد أخبرتني به ليلى الاخيلية ، وهي التيساعدتنافي تدبيرالحيلة للخروج » . وذكر له امر القسم الذي أقسمه الحجاج، فانشرح لذلك صدر حسن، ثم قال : «وماذا دبرتموه للنجاة من بطش الحجاج، اني لأستنكف فرارنا على هذه الصورة ، ويخيل الي أن سمية لا ترضى مني هذا الضعف ».

قال : «انها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما ، لانهم لو ظفروا بك لفتكوا بكما معا . ثم أي فائدة من بقائك في المعسكر بعد انكشاف امرك،وهـل تستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟. وعلى أي حال قد جئتك بما استقر رأينا عليه في هذا الصباح ، وهو ان أترك هذا الجمل عندك وأعود ، فتتأهب انت للرحيل في العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التي تراها امامك ، وستجدني وسيدتي سمية هناك وكل منا على هجين ومعنا المؤ ونة اللازمة للسفر في الصحراء أياما. ومتى بعدنا عن مكة صرنا في مأمن».

فسر حسن لهذا التدبير، على صعوبة تنفيذه ، وقال لعبد الله : «احذر ان يطلع أحد على ما دبرتموه، فتكون الثانية شرا من الاولى . وثق بأنني ان وقعت في هذه المرة فلن يسعني الا ان أناضل عن سمية حتى أموت بين يديها».

قال : «لقد اعددنا كل شيء، ولا خوف على سمية لأن الحجاج لا يأتي الى خباء أهله مطلقا في هذه الايام للسبب الذي ذكرته لك».

اطمأن بال حسن وجلس في مخبئه بالخربة يتناول طعاما أحضره له عبد الله ، ولم تمض ساعة حتى سمع صوت قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل، فصعد الى الأكمة وتطلع نحو مصدر الصوت فرأى أكثر من عشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع، وفي مقدمتهم فارس ضخم أسود، هو قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان أشار قنبر بيده الى حسن وقال: «هذا هو فأمسكوه». فأحاطوا به من كل ناحية ،ولم ير حسن بدا من التجلد فقال لهم: «ما بالكم ؟ وما الذي تطلبونه ؟».

فضحك قنبر مستهزئا وقال : «ان الامير يدعوك الى وليمة العرس !».

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف العبد به، وقال له : «اخسأ يا عبد السوء».

وما أتم كلامه حتى أحدق به الفرسان وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية في رأسه وقال لهم : «لا يغرنكم عددكم ، ولا تظنوا اني أهاب سيوفكم وخيولكم، فاما أخبرتموني بما تريدون بالحسني، واما فلن تنالوا مني شعرة قبل ان يقطر حسامي من دمائكم » . قال ذلك وقد أخذ الهياج منه مأخذا عظيما ولم يعد يبالي الحياة.

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير عينيه خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال : «نراك تظهر من الضعف قوة، وما انت الا جاسوس نذل لا أحسبك تحتمل ضربة من هذا السيف».

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وصاح في هذا الفارس قائلا : «أتخوفني بسيفك؟ إنما يخاف السيوف من يخاف الموت، ولست ذلك الرجل. فإذا أردت النزال فانزل نتبارز راجلين، فلا يصح النزال وأنت راكب وأنا راجل. وإذا خفت فانزلوا جميعاً وأنا أستعين الله عليكم».

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : «لو ان الامير امرنا بقتلك لأريتك القتل كيف يكون، ولكنه أمرنا ان نقودك اليه أسيرا . فأمش».

قال : «لا أسير ماشيا وأنتم راكبون، فاما ان أركب معكم أو تمشوا معي !».

فلما رأوا هذه الجرأة منه هابوه وحسبوا له حسابا، وجعلوا يتشاورون فيما يفعلونه. فاشار بعضهم بقتله ، وعارض آخرون لأن الامير لم يأمرهم بذلك . ثم قر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون به المعسكر ويقدمونه فيرى الامير رأيه فيه.

وكانوا يعلمون انه يندر ان يساق الى الحجاج متهم وينجو من القتل ، فانه كان سفاكا للدماء حتى أحصوا الذين قتلهم في حياته فبلغوا مائة الف وعشرين الفا، ووجدوا في سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين الفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب. فرأى الفرسان ان يعاملوا حسنا بالحسنى ويتركوا امر الايقاع به الى الحجاج. فتقدم اليه فارس غير الذي كلمه اولا وقال له : «لو كنا قد أمرنا بقتالك لقاتلناك مشاة او فرسانا، ويحكم الله بيننا وبينك، ولكننا جئنا لنحملك الى الامير».

قال : «قلت لكم اني لا أسير معكم ماشيا وانتم راكبون». وكان قنبر واقفا يسمع كلامه ويستغرب صبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ورطانتهم : «امش يا هسن وهل انت أهسن مني ؟».

فلما سمع حسن كلامه جرد سيفه وصاح فيه قائلا : «اذا تكلم الناس فاخرس انت يا عبد النحس. والا فاني مطير رأسك بحد هذا السيف».

فضحك قنبر حتى بانت نواجذه ثم قال : «بعد قليل نرى من المقتول منا، ولكنك غير ملوم لأن سمية خرجت من يديك، تعال وانظرها بين نساء الامير !».

فلما سمعه حسن يذكر سمية ، عز عليه ان يحتقره ذلك العبد ويهزأ به ، فهاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته ، ولكنه أمسك نفسه وقال له : «لولا خوفي ان يقال لطخت حسامي بدم عبد لئيم لأطرت رأسك عن جذعك ، ولكنني أرجو ان يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ، فاخرس ولا تخاطبني والا فأنت الجاني على نفسك».

فلم يزدد قنبر الا قحة واستخفافا ، واقترب من حسن ويده على قبضة سيفه وقال : «ألمثلي تقول هذا الكلام يا حسن ثم تعرض بذكر مولاي ، والله اني ضاربك ضربة اعلمك بها الادب والحشمة». قال ذلك وهم باستلال السيف ، فعيل صبر حسن لقحة ذلك العبد وسكوت بقية الفرسان ، فجرد حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب رأسه يتدحرج على الاحجار.

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه : «لقد حل لنا دمك بعد هذه الجرأة ، كيف تقتل هذا الرجل بين أيدينا ؟».

فلم يبال حسن ضوضاءهم وقال لهم : «أتعدون هذا رجلا ؟ . ان من يعده رجلا لجدير بأن يناله ما ناله . ثم اني رأيتكم سكتم عن قحته فلم يسعني الا قتله، وقد قلت لكم اني لا أبالي الموت فلا تخوفوني به». قال ذلك والشرر يكاد يتطاير من عينيه، وظل واقفا وسيفه يقطر من دم قنبر وقد اشتفى قلبه بقتله ويئس من الحياة ، لانه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم على الدفاع الى آخر نسمة من حياته ، فاذا مات مات كريما.

على انه ما لبث أن رأى الفرسان يتسارون ، ثم تقدم أحدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلاً: «هذا جوادي فاركبه حتى تأتي المعسكر وشأنك والأمير، وسأركب أنا جملك».

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبدالله، فاستأنس به، وأدرك انه هو الذي حملهم على الابقاء عليه. فركب الجواد، وساروا جميعاً نحو المعسكر.

وكان السبب في معرفة مكان حسن، أن عرفجة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه في المعسكر، فقضى هذا طول الليل في البحث، وفي الصباح رأى هجانا قادماً الى المعسكر من ناحية تلك الخربة، فلم يعرف الهجان ولكنه شك في أمره، فذهب يبحث في المكان الذي رآه قادماً منه، وهناك وقع بصره على حسن وجمله فأسرع الى سيده فأنبأه بما رأى، فأوعز هذا الى الحجاج فأرسل كوكبة من الفرسان للقبض على الجاسوس الهارب.

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحراس، فلما علم بالأمر احتال حتى ألحق بأولئك الفرسان، لعله يستطيع مساعدة سيده، وبذل جهده حتى أبقوا عليه حتى بعد أن قام بقتل قنبر، رغم ماله من منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لسيده، ولأنه ينفع في مثل هذه المهام.

وقد ساعد عبدالله في بلوغ غايته أن الجند لم يكونوا يحبون قنبر لفرط استبداده وقحته ـ واستبداد العبيد ثقيل على الطباع ـ فلما قتله حسن فرحوا فيما بينهم وبين أنفسهم، وان اظهروا الغضب.

وبعد أن أرسل عرفجة الفرسان دخل على الحجاج في خيمته، وجلسا ينتظران ما يكون، وأخذ عرفجة يمهد للفتك بحسن، فأقنع الحجاج بأنه جاسوس وبأنه إذا بقي حياً فلا يؤمن شره. وما كان الحجاج في حاجة الى من يوصيه بالقتل، وهو بطبعه شديد الرغبة في سفك الدماء.

وحان وقت الغداء، فلم يشأ الحجاج مغادرة الفسطاط قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس الذي بالغ عرفجة في وصف خطره، فلما أحس الجوع أمر بأن يؤتى بالطعام الى الفسطاط، وكان الحجاج من الأكلة المشهورين في الإسلام أمثال: سليمان بن عبد الملك، وميسرة البراش، وغيرهما، حتى قالوا انه أكل ٨٤ رغيفاً مع كل رغيف سمكة في أكلة واحدة! . فلما جاءوه بالطعام دعا من في مجلسه الى مشاركته فيه، فاعتذروا جميعاً تهيباً منه الا عرفجة فانه أكل معه، وان ظل طول الأكل قلقاً يفكر فيما دبره لحسن من المكايد. فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعت المائدة، وجلس الحجاج صامتاً. وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين في حضرته سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير.

■

وفيما هم على تلك الحال، دخل الحاجب وقال: «لقد عاد الفرسان وعما قليل يصلون».
فقال الحجاج: «وهل الاسير معهم؟»
قال: «لم أر بينهم أحدا ماشيا».

قال: «لعله جاء على الجواد». قال: «ان بينهم رجلا بلباس غريب، فلعله هو الاسير».

فنهض عرفجة ووقف بباب الفسطاط يتفرس في القادمين، ولما وقع نظره على حسن عرفه، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يراه فيها بعد مقابلتهما في المدينة.

ولما رأى حسن عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ، وود لو ان سيفه أصاب عنقه بدلاً من قنبر. ولاحظ عرفجة ان قنبر ليس بين القادمين فظنه تأخر في الطريق، وعاد الى الفسطاط

وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن وأنبأ الحجاج بوصولهم فقال: «ادخلوا الرجل لنراه».

فأدخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف بين حارسين احدهما عبد الله وفي يد كل منهما حربة. ولا تسل عن هواجس عبد الله في تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج في سفك الدماء. وأما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين بعض الاصدقاء، والتفت الى من حوله في الفسطاط فرأى في صدره الحجاج وعرفجة، والى الجانبين رؤساء الأجناد وكلهم سكوت تهيباً من الحجاج. لأنه قلما رؤي ضاحكاً؛ واذا ضحك فانه لا يزيد على أن يكشر عن أنيابه. وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لم تجد فيه أي اثر لغير التجهم والعبوس!

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته في سفك الدماء، ولكنه اعتزم الصبر والثبات حتى الموت، وبقي واقفاً برهة لا يخاطبه أحد في شيء والحجاج ينظر إليه ويتفرس فيه ثم قال له: «ممن أنت؟».

قال: «ما أنا من ثقيف ولا من أمية».

قال: «وماذا تعني؟».

قال: «أعني اني لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين، ومهما يكن من أمري بعد ذلك فليس مما يغير رأي الامير في..».

فقطع عرفجة كلامه وقال: «أبمثل هذا الجواب يخاطب ولي أمير المؤمنين؟! انها قحة!».

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة والتفت اليه وقال: «بل القحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ويقطع الكلام عليه».

فأراد عرفجة ان يتكلم فرأى الغضب في وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت، وقال الحجاج: «لسنا في مقام جدال، فأخبرني ما الذي جاء بك الى هذا المعسكر متنكراً؟».

فتحير حسن، ولم يدر بم يجيب، وخاف ان يصرح بحقيقة غرضه فيهيج غيرة الحجاج عليه، ولا سبيل بعد ذلك للنجاة، فلبث ساكتاً فاستبطأ الحجاج جوابه فأعاد السؤال فقال حسن: «جئت لأمر يهمني ولا يهم سواي ولا علاقة له بأمر الخلافة أو الامارة».

قال الحجاج: «نرى أجوبتك مبهمة فأفصح».

فلبث حسن ساكتاً، فاغتنم عرفجة سكوته وقال للحجاج: «ان أجوبته مبهمة لأنه يخاف ان يعترف بفعلته، وهو جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير. بل هو عدو أمير المؤمنين يتمنى سقوط دولته ويسعى في ذلك جهده. واذا شئت ان تتحقق ذلك فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين».

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه فيما قاله عرفجة، فقال حسن: «حاش الله أن أكون كما يقول» .

فقال الحجاج: «اذا كان الامر كذلك، فالعن الكاذبين: عليا بن أبي طالب، وعبد الله ابن الزبير، والمختار بن أبي عبيد» .

فارتبك حسن لأنه لا يعتقد كذب هؤلاء، ولا يريد أن يلعنهم. وكان يعلم أنه اذا لم يلعنهم فان هذا يكون حجة عليه فقال: «لا أرى علاقة بين صدق نيتي في خدمة أمير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء» .

فقال عرفجة: «أرأيت يا مولاي كيف هو خائن غادر يكذب على الامير كذباً صريحاً؟ . أما قلت لك أنه جاسوس والجاسوس يستوجب القتل؟ أقتله يا مولاي وأرح نفسك منه» . قال ذلك وأطرافه ترتعش ولحيته تنتفض في وجهه على صغرها، وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما حصرم .

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة ونظر، فأدرك ان تمنع حسن عن اللعن لا يدل على جاسوسيته، ولكنه أعاد السؤال عليه وقال: «لقد صبرنا عليك حتى الآن. سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب وحده يكفي لاتهامك. ثم سألناك عن غرضك في طرق هذا المعسكر متنكراً فأجبت جواباً مبهماً، وكلفناك لعن الكاذبين، فأبيت. فهل تتوقع ان نصبر عليك أكثر مما صبرنا؟» .

فلما سمع كلام الحجاج أيقن بدنو أجله، ولكنه لم يجزع، وعز عليه أن يشمت به عرفجة، فلبث ساكتاً يفكر فيما يفعل، واغتنم عرفجة الفرصة فخاطبه قائلاً: «اجب الامير. الست جاسوساً خائناً جئت لتكيد لأمير المؤمنين؟» .

ثم التفت الى الحجاج وقال: «اني اعجب لصبر مولاي على هذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع رأسه؟» .

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف أن تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله، اعتزم الايقاع بعرفجة، فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور وقال: «اتدعوني خائناً وما الخائن الا أنت؟» .

فوثب عرفجة من مجلسه مغضباً وقال: «كيف تجرؤ على هذا الكذب في حضرة الامير وهو اعلم الناس بصدق طاعتي واخلاصي. والله لو اذن لي الامير لقطعت رأسك بيدي، فاني لأعلم الناس بخيانتك، ويعلمها ايضا غلامي قنبر» . قال هذا ثم تلفت حوله متفقداً عبده

قنبر، فلما لم يجده صاح : «أين قنبر؟». فأجابه حسن ساخراً وقال: «لن يجيبك قنبر لأنه نال جزاءه». فالتفت عرفجة الى الحراس مستفهمًا، وقبل أن يسألهم أشار أحدهم بيده اشارة فهم منها ان قنبر قتل بيد حسن فأجفل عرفجة وحملق عينيه وصاح فيه: «وهل قتلت غلامي أيضاً! ثم تقف غير خائف من القصاص؟!». ثم التفت الى الحجاج وقال: «أتراه لم يستوجب القتل بعد؟!».

فابتدره حسن قائلا: «قتلته لخيانته، وسوف تنال جزاءك بأمر مولانا الامير متى ثبتت خيانتك».

فقال عرفجة: «أتتهمني بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد اضفت اليها جريمة القتل؟».

فلما راهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على الآخر، رأى من الحزم والدهاء ان يصبر حتى يستمع لجدالهما، وان كان هذا على غير ما تعوده جلاسه منه .

اما حسن فلما رأى الحجاج مصغياً، التفت الى من حوله من الأمراء وقال: «أشهدكم على ان دم الخائن مهدور ايا كان!».

فقال عرفجة: «ما الخائن الا انت» .

فتجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادىء: «من الخائن منا يا عرفجة؟. أأنا الخائن وأنت الامين الصادق في خدمة أمير المؤمنين؟».

قال: «وهل في ذلك شك؟» .

قال: «وماذا تقول في الكرسي؟».

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسي ارتعدت فرائصه وبدت البغته في وجهه، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة قال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف: «أى كرسي؟. لا شك في انك تهذي» .

فقال حسن: «أنسيت الكرسي ولهيب ناره لا يزال يلفح وجهك؟ أفلم تدرك أي كرسي أعني يا عرفجة؟».

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حرق الكرسي، ولكنه استغرب ذلك وأنكره وعاد الى محاولته المغالطة فقال: «ما بالك تهذي يا رجل؟. واي كرسي تعني؟».

وكان الحجاج ينظر في عيني عرفجة، فلم يخف عليه انه في ورطة، وبقي صامتاً يصغي. فقال حسن: «ألم تفهم اي كرسي يا عرفجة؟. هو كرسي المختار بن أبي عبيد الذي كلفتموني

لعنه الآن!».

فازداد تغير وجه عرفجة وقال: «وما شأنه؟ وما علاقة المختار بما تقول»؟.

فقال حسن وقد رفع صوته: «الا تعرف علاقته بك؟ اذا كنت لا تعرف تلك العلاقة، فاسأل محمدا بن الحنفية، وهو قريب من هنا. اسأله أو اسأل من شئت. واذا انكرت استنطقنا رماد الكرسي».

فلما سمع عرفجة هذا التعريض أوجس في نفسه خيفة، ولم يجد سبيلا الى التخلص الا ان يمضي في تجاهله ومغالطته فقال وهو يضحك: «اتظن مثل هذه المفتريات تنطلي على مولانا الامير؟ وهل تظنه يصغي لكلام مختلق لا معنى له ولا أصل؟. ان الامير ان يكن قد مد لك في حبل الحلم، فما ذلك الا لكي يأخذك بجريرتك ويجعلك عبرة لأمثالك من الخائنين».

فقال حسن: «للأمير ان يفعل بي ما يشاء، ولكن ذلك لا ينفي كونك خائناً منافقاً. واذا كنت قد انكرت أمر الكرسي، فان أمره معروف وأهل المدينة يعرفون عنك محافظتك بضعة اعوام على محفة لا يعرف أحد ما فيها. ولم يكن فيها الا كرسي المختار الذي زعم انه لعلى بن أبي طالب، واستغله في الدعوة الى قتال بني أمية من ورائه، فلما مات اخذت انت الكرسي لنفسك، لتخلف المختار في استغلاله لمناصبة بني أمية العداء ومحاولته اخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذي كان المختار يدعو له».

فقطع عرفجة كلامه وقال: «ما هذا الا اختلاق».

فقال حسن: «ان ابن الحنفية شاهد على ذلك، ومهما يكن من أمره فيما يختص بالخلافة فلا يشك أحد في صدقه، واذا كان شعب علي بعيداً من هنا، ففي المسجد بمكة من شهدوا حريق الكرسي معي، وشهدوا الاهانة التي لحقت بعرفجة النزيه الصادق من محمد بن الحنفية حين جاءه مستأذنا في الدعوة الى بيعته وخلع طاعة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان!».

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج من في الفسطاط، ومال الحجاج الى تصديق حسن، وكان الحجاج مع تقريبه عرفجة لا يجهل خبثه ونفاقه، ولكنه انما قربه لأنه يحتاج الى امثاله في بعض اغراضه. فلما رجح ثبوت هذه التهمة عليه صمم على قتله، ولكنه أجل ذلك ليرى ما يكون».

اما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوء: «يلوح لي ان مولاي الأمير سكت عما سمعه من هذا الرجل كأنه مال الى تصديقه».

فقال الحجاج: «وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقاً؟».

قال: «نعم يا مولاي»

فقال الحجاج: «لا يعقل انه يفعل ذلك، ولاسيما انه يستشهد اناسا معروفين. ثم ما الذي يدعوه الى هذا الاختلاق؟».

فقال: «يدعوه الى ذلك أمر افظع من خيانته، ولو أني ذكرته لك ما ترددت في صلبه!».

فقال: «وما ذلك؟».

فقال: «اني لأضن بعرض الامير ان يذكر في مثل هذا المقام، فاذا اذن مولاي في خلوة ذكرت له السبب، وانا ضامن انه يقتنع ببراءتي».

فقطب الحجاج حاجبيه واشار بيده فخرج كل من في الفسطاط من الامراء والحراس وبينهم حسن، وقد سر لما رآه في وجوه الامراء من دلائل نقمتهم على عرفجة لفظاظته وسوء سريرته. وان أظهروا له غير ذلك خوفاً من الحجاج. وفاتهم أن الحجاج نفسه لم يكن يثق به.

فلما خلا عرفجة الى الحجاج أخذ يقص عليه حديث حسن مع سمية ثم قال: «وقد كنت اعدها لخدمة مولاي بعد ان طلبها منذ اعوام. فجاء هذا الشاب وخدعها بحبه، وهي فتاة لا تدرك أمور الدنيا، فانخدعت بظاهره، وكادت توافقه على ان تفر معه لو لم اطلع على فعلته، فسعيت في قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة. وهذا طارق بين يدي مولاي ينبئك بصدق قولي. ولكن الرجل الذي انفذناه لقتله لم يظفر به، فنجا ثم جاء متنكراً الى معسكر الامير بعد أن علم بزفافها اليه ليحاول أن يخدعها مرة ثانية، ولكني رأيته ساعة مجيئه مع ليلى بالامس، وبعثت من يأتون به، فعلمت انه سار الى جهة أخبية النساء، وقد شق علي أن اصرح بذلك لمولاي الامير لئلا أكدره، فاكتفيت بأن ذكرت انه جاسوس، لعلمي بأنه صاحب الكتاب الذي جاءنا به الفتى الثقفي منذ حين وظنناه قتله. ثم علمت بأنه فر الى الخربة المجاورة فأرسلنا الفرسان للقبض عليه، ويؤيد صدق قولي، انك لما سألته عن سبب مجيئه الى هنا لم يستطع جواباً».

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولاً، ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة أيضاً فلم ير خيراً من التريث حتى ينجلي له وجه الصواب. فأمر بسجن حسن، وتظاهر بأنه اقتنع ببراءة عرفجة.

سيق حسن الى خيمة افردوها له في طرف المعسكر، ووقف ببابها حارسان مسلحان. فلما تركوه فيها بعد أن شدوا وثاقه أيقن باستحالة النجاة، وجعل يفكر فيما مر به، وما كان من أمر

عرفجة، معه، فرأى أن الحجاج لم يقتنع كل الاقتناع بخيانة عرفجة، وادرك ان هذا يستعديه عليه من طريق اثارة غيرته، والغيرة تعمي وتصم.

وقضى حسن في ذلك بقية يومه، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئاً، ثم قضى ليلته ساهراً وخيال سمية أمام عينيه، وفكره يبحث عبثاً عن وسيلة الى النجاة بنفسه وسمية.

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد اثقلته الاغلال، سمع وقع اقدام خفيفة في الخيمة، ثم صوتا يهمس في اذنه قائلا، «لا تخف يا مولاي اني خادمك عبد الله».

وحاول ان ينهض فأعانه على ذلك عبد الله ثم قال له: «لقد احتلت حتى جعلوني أحد الحارسين المنوط بهما تناوب مراقبتك، وأنا الآن في نوبة السهرة على حراستك. وقد نام رفيقي فدخلت لأسألك عما تريد».

فقال حسن: «لا أريد شيئاً ولا رغبة لي في النجاة، الا اذا نجت سمية معي».

فقال عبد الله: «وما حيلة الحر الأعزل يا مولاي اذا وقع بين ايدي من لا يتورعون عن قتله ظلمًا وعدوانا، مستعينين بكثرة عددهم وعدتهم؟ أيسلم نفسه لهم طوعاً، أم يحاول الخلاص من ايديهم بأي وسيلة؟».

قال: «أتريد أن أفر من المعسكر وحدي وأترك سمية في بيت الحجاج؟وهل تحسب ان حياتي بعيداً من سمية مما أحرص عليه؟».

فقال عبد الله: «لا يا مولاي، لست أعني أن تخرج وحدك، وانما اعني البحث عن وسيلة تخرج بها أنت وسمية معاً. ولا عار في الفرار من وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعي العدل».

فسكت حسن، واستأنف عبد الله الكلام فقال: «سأذهب غدا الى خباء النساء لاستطلاع الامر، ثم اعود اليك بما يستقر عليه الرأي. فدع القنوط وكل واشرب حتى يأتي الله بالفرج». ثم ودعه وخرج.

وشعر حسن بالارتياح واعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته، ثم مكث في اليوم التالي ينتظر رجوعه.

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه في مساء الأمس، ثم سمعت خبر القبض على حسن والرجوع به الى المعسكر، وسجنه، وما لبثت ان رأت الجند قد أحدقوا

بخبائها ومعهم السلاح، فأيقنت ان الحجاج اطلع على سر قدوم حسن الى معسكره فتحققت وقوعها في الخطر، ودعت اليها امة الله جاريتها، وكانت هي التي أخبرتها بسجن حسن، فجاءت وهي تظهر عدم المبالاة، فقالت لها سمية: «هل رأيت الجند المحدقين بنا احداقهم بالقتلة المجرمين؟».

قالت: «رأيتهم. ولكن ما لنا ولهم؟».

فقالت سمية: «اتتجاهلين ياأمة الله؟ الا ترين انهم سجنوني كما سجنوه؟ وهل تشكين في أن ذلك العاتي قد اطلع على ما بيني وبين حسن فلم يبق الا أن يفتك بنا؟!».

قالت: «لا اظنه يفتك بك».

فقطعت كلامها وقالت: «تظنينه يستبقيني لمآربه الدنيء!. ولكن ما أنا مبقية على نفسي. أين السم الذي حفظته لي؟. لقد آن وقته!» وكانت أمة الله قد أخذته لتحفظه عندها.

قالت: «لا اظن وقته أزف يا مولاتي، وحسن لا يزال على قيد الحياة، ومن يدري ما يأتي به الغد؟».

قالت: «اتتوقعين لحسن البقاء وقد وقع في قبضة هذا الظالم الذي لا يرى فيه الا مناظره على عروسه؟. آه يا أمة الله! يا ليتني ظللت على يأسي الماضي ولم أعلم ببقاء حسن حيا! ان هذا لن يعفيه من القتل. فكيف أبغي الحياة في بيت رجل قتل حبيبي؟».

فقطعت امة الله كلامها وقالت: «انه لم يقتله بعد يا مولاتي. وعسى الله ان ينقذه من بين يديه فان الله قادر على كل شيء».

قالت: «نعم ان الله قادر على كل شيء، ولكن أليس حسن في حكم المقتول الآن؟». قالت ذلك وخنقتها العبرات.

فاحتارت امة الله، ولم تدر بم تعزيها عن توقع قتل حبيبها، ولم تستطع لومها على تفكيرها في الانتحار حتى لا تبقى في بيت قاتل حبيبها، فظلت ساكتة، واستأنفت سمية الكلام فقالت: «أين السم؟ اعطيني اياه».

فتغير وجه امة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت: دعي السم الآن فان وقته لم يأت بعد».

قالت: «اعطيني اياه، واعاهدك على اني لا أتناوله الا بعد ان اقطع الامل من بقاء حسن». ثم اطلقت لنفسها عنان البكاء، فبكت امة الله معها، ولكنها اشفقت عليها من

الإسترسال في الحزن على هذه الصورة فكظمت ما في نفسها وقالت: «اتعدينني انك لا تتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة؟». فلما عاهدتها على ذلك خرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام. فتناولته منها وقبلته وهي تقول: «انت هو منقذي من احزاني ومتاعبي. انت وحدك معيني على قهر ذلك العاتي، وانقاذي منه».

وكان الحجاج قد امر باخراج النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وامر الحراس ان يحدقوا به وهم في غفلة عن سبب ذلك، فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخباء لما يتحدث الحراس به. وسمعتهم يتحدثون بما أظهره حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر في كلام عرفجة من التلاعب والغدر. وكانت كلما سمعت ذلك منهم رقص قلبها فرحا ولكنها ما تلبث ان تعود الى هواجسها.

أما عبد الله فلما جاء الى سمية ليخاطبها في امر الفرار رأى الحرس محدقاً بخبائها فعاد ولم يرها، وأخبر حسنا بما كان فازداد الامر تعقيداً عنده ففزع بآماله الى الصبر والتسليم للأقدار.

قضى حسن أياماً على هذه الحال، ثم حدث أن رأى نفسه فيما يرى النائم وكأنه يقول لبلال خادمه الذي تركه في مكة: «اذا استبطأتني فاطلبني في معسكر الحجاج». فلاح لحسن أن يكون بلال جاء المعسكر ولم يعلم بمكانه. فلما دخل عبد الله عليه ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيافته فقال عبد الله: «رأيت في هذا المعسكر عبداً أظنه هو الذي تعنيه ويظهر أنه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له أحد لأن الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير مرة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفجة أمره واتهمه بالجاسوسية».

فقال حسن: «يهمني أمر هذا العبد، فاستقدمه إلي على عجل». فخرج عبد الله فرأى بلالا فاغتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن متظاهراً بأنه يحمل له طعاماً، فقال بلال لحسن: «لقد بحثت عنك حتى يئست من لقائك وكدت أرجع خائباً. فالحمد لله على أني رأيتك ولو في السجن...».

فقال حسن: «وماذا وراءك؟»

قال: «جئت اليك في مهمة مستعجلة وأخشى أن يكون قد فات أوانها».

قال: «وما هي؟»

قال: «استدعاني ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير في مكة وسألني عنك، فلما أجبته بأنك لم تعد بعد قال ان أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير يحب أن يراك لأمر ذي بال خاطبه في شأنه منذ بضعة وعشرين يوماً، وهو يريد الآن أن يعهد اليه في أمر مهم). فجئت على عجل

وقد قضيت ثلاثة أيام في البحث عنك حتى جاءني عبد الله كما رأيت».

فقال حسن: «ابن الزبير يطلب أن يراني في مكة؟»

فقال: « نعم يا مولاي وقد ألح علي كثيراً، وقال أن الوقت ضيق».

فأطرق حسن وأعمل فكرته فتبين له أن ابن الزبير انما طلبه في شأن خطبة أخته رملة لخالد بن يزيد، وتذكر أنه انما جاء الحجاز لأجل هذا الأمر، ولكنه لم يدر كيف يجيب الدعوة وهو سجين، فالتفت الى عبد الله وقال: « انك عرضت علي منذ أيام أن تخرجني من هذا المعسكر، فهل تستطيع هذا اليوم؟»

قال: «ذلك سهل علي في أي وقت تشاء، وأني افديك بروحي»

فقال: «لا أبغي الفرار وانما ابغي الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود في الصباح الى محبسي».

فأعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له: «افعل ما بدا لك فاني رهن اشارتك».

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال عبد الله: «تمهل قليلا حتى يجيء الليل فأعطيك ثوبي فتلبسه وتخرج به وألبس أنا ثوبك وأحل محلك هنا ريثما تعود، وسوف لا يشك من يراك أنك من حراس الحجاج، فتظاهر بأنك ذاهب في مهمة الى ابن الزبير، واذا رأيت ان تبقى هناك على أن ألحق بك، فافعل».

فأعجب حسن بمروءة عبد الله وتضحيته في سبيل نجاته، فقال: «بورك فيك من صديق صادق، أخاف أن اصاب بسوء فلا أعود فتقع أنت تحت طائلة العقاب».

قال: «اذا أصابك سوء، فلن يبقى لي مأرب في الحياة. على أن القوم يعتزمون الهجوم غدا على ابن الزبير، فما أظنهم ينتبهون لخروجك، ولن أجد مشقة في اطلاق نفسي من السجن».

فقطع حسن كلامه وقال: «أما رجوعي فلا بد منه لأني لا استطيع أن اترك سمية». قال ذلك وصمت بغتة كأن فكراً جديداً طرق ذهنه ثم قال: «ولا بد لي من الانتقام من أبيها الخائن». ثم التفت الى بلال وقال له: «أتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد في فسطاط محمد بن الحنفية؟»

قال: «اتعني حكاية عرفجة والكرسي؟»

قال: «اياها أعني، فهل تستطيع الحصول على كتاب من محمد بن الحنفية الى الحجاج يشهد فيه بأن عرفجة جاء بذلك الكرسي وعرض عليه أن يدعو الى بيعته أهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان؟».

قال بلال: «ذلك شيء يسير، فاني صديق قديم لسعيد، ولهذا دالة عليه».

فقال حسن: «اذن أذهب الآن الى شعب علي، واسلك أقرب الطر ق اليه، فاذا حصلت على الكتاب فعجل بالعودة به الى هنا، حيث أكون قد عدت بعد مقابلة ابن الزبير»

فخرج بلال وسار في مهمته. وخرج عبد الله الى المعسكر فوجد القوم يتأهبون للقتال في صباح الغد، ورأى زميله واقفاً بباب الخيمة ينظر اليهم متحسراً على حرمانه من الذهاب معهم ليصيب بعض الغنيمة. فقال له: «اذا شئت اللحاق بالجند فافعل وأنا أبقى هنا لحراسة السجين». فسر الرجل وشكره وانصرف.

ولما غابت الشمس دخل عبد الله على حسن فألبسه ثيابه وسلمه الجربة، ثم لبس هو ثياب حسن وجلس مكانه. فخرج حسن قاصداً الى مكة، ولم يشك فيه أحد لظنهم أنه من الحراس ولانشغالهم بالتأهب للهجوم على مكة.

أم ابن الزبير

دخل حسن مكة دون أن يعترضه أحد، ولاحظ ان اسواقها خالية من الناس، غير انه ما كاد يشرف على المسجد حتى وجد الناس قد ازدحموا فيه وفيما جاوره من المنازل، فعلم انهم يتوقعون شرا ولم يفتهم ما نواه الحجاج. فسارتوا الى منزل عبد الله بن الزبير فرأى الناس يتدافعون عند بابه، وسأل عن ابن صفوان فعلم انه في خلوة مع ابن الزبير، فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل، فمل الانتظار وشق طريقه بين الناس ملتمسا الحجرة التي فيها عبد الله، فلما بلغها سأله الخدم عما يريد، فذكر انه يريد مقابلة أمير المؤمنين لأمر ذي بال، فأبلغوا أمره الى ابن صفوان، فخرج اليه وما كاد يراه حتى رحب به، فسأله حسن: «اين أمير المؤمنين؟».

قال: «تركته يصلي الفجر».

قال: «لقد جئت لمقابلته اجابة لطلبه».

فقال: «نعم لقد طلب ان يراك لأمر يريد ان يسره اليك. وسوف ادخلك عليه». قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن في انتظار عودته في فناء البيت وهو يتوقع ان يطول غيابه لعلمه بطول صلاة ابن الزبير مذ رآه يصلي في المسجد من عهد قريب.

على ان انتظاره لم يطل، وسرعان ما عاد ابن صفوان واشار اليه ان يتبعه، فمضى وراءه حتى دخل الحجرة فوجد عبد الله واقفا وسطها وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز وتحتها سراويل ومنطقة، وقد فاحت منه رائحة المسك. فهم حسن بتقبيل يده، فلم يمكنه من ذلك ورحب به، ثم اشار الى ابن صفوان فخرج، واقفل عبد الله الباب بنفسه، فاستغرب حسن ذلك ولبث واقفاً ينتظر ما يبدو منه، فرآه يتجه الى وسادة على طنفسة هناك فجلس وقد وضع سيفه مستعرضاً على ركبتيه واسند ذراعيه عليهما فوقه، واشار اليه ان يجلس بجانبه، فجلس صامتاً.

وظل عبد الله مطرقاً وهو يلاعب لحيته بين انامله، ثم التفت الى حسن وقال له: «ما اظنك حصلت على كتاب من خالد».

قال: «ان الرسول لم يعد بعد».

قال: «وما اظنني اراه ولو عاد من الغد».

فقال حسن دون ان يدرك قصده: «كيف لا وهو رهن اشارة امير المؤمنين؟».

قال: «على اي حال، لقد ايقنت بصدق رغبة خالد في الزواج من اختي، وانه فيما علمت لأفضل القوم، فاذا لقيته فأوصه عني بها خيراً، واذكر له ان مصاهرته لال الزبير جاءت متأخرة، ولو انه عجل بها بضعة اعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بالامر، بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم». قال هذا وقد ظهر التأثر في عينيه وخشن صوته، ثم وصل كلامه قائلا: «ليت شعري كيف يسود العتاد الظلمة؟ وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة على رجال يعبدون الله ويعملون بكتابه؟».

فأدرك حسن انه يئس من الفوز، واراد ان يستطلع ما اعتزمه فقال: «لا يخفى على مولاي ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، ولا عجب في ان تكون الغلبة في الدنيا لمن همهم الدنيا، فقد كانت الغلبة لمعاوية على الامام علي صهر الرسول وابن عمه، وقد فتك ابن زياد بالحسين وآل بيته. ذلك لأن الدنيا شيء والآخرة شيء آخر، وقد انقضى العصر الذي ساد فيه الحق والدين والتقوى، واصبح الحكم الآن لا يتولاه غير اهل الدهاء والسياسة و. .». ولما بلغ الى هنا بلع ريقه وبدا في وجهه انه أراد التصريح بشيء ثم توقف خوفاً أو حياء. فنظر عبد الله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام، فأتم حسن كلامه قائلا: «ولا اخفي على مولاي ان آل مروان، وآل أبي سفيان قبلهم، لم يخلص لهم الملك دون بني هاشم وغيرهم الا بالدهاء والسياسة وبذلهم المال لدعاتهم وأنصارهم». فلما ذكر المال، بدا الانقباض في وجه عبد الله وقال: «لا تذكرني بالمال وأمره فقد كنت شحيحاً به لأنه مال بيت الله، ولعلي لو بذلته للأحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دوني. ولكني لا ألتمس الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال».

فقال حسن: «لو ان مولاي اصغى لمشورة الحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر الى بني مروان. .».

فقطع عبد الله كلامه وقال: «سمعتك تذكر هذا الامر قبل اليوم، ولقد سمعته كذلك من كثيرين، على اني لو اطعت الحصين ورافقته الى دمشق لما بايعني بنو أمية. فهؤلاء شق عليهم ان يبايعونا في ديارنا وبين أهلنا. فكيف لا يكون ذلك اشق عليهم في ديارهم وبين احزابهم. ومع ذلك فقد قضي الامر. وما بعثت اليك الا لأوصيك بأختي خيراً، فأوصِ بها خالد، وأبلغه عني أني أوصيه كذلك بأن يدع أمر الخلافة فإنها شاقة على اهل الدين في هذا الزمان، وليشتغل بما هو مشتغل به من العلم والكيمياء فذلك خير له وأجدى عليه. ولا اخفي عليك اني قطعت الامل في الفوز بعد ان نبذني الاهل والاصدقاء خوفا من الموت، ولو اني

طلبت الدنيا لما امتنع علي الحصول عليها. ولكنني اطلب الآخرة، وقد دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا، فلم يبق الا ان اتركهم وشأنهم. وقد انبأني الجواسيس بأن الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا في الغد، ويفعل الله ما يشاء». قال ذلك وغص بريقه فتشاغل باصلاح غمد حسامه، ثم وقف وقال: «تعال معي الى امي لأخبرها بما استقر عليه الرأي في شأن رملة».

فوقف حسن ومشى في أثره وقد لاح ضوء الفجر، فدخلا حجرة رأى حسن في صدرها امرأة عجوزا عرف انها اسماء ذات النطاقين ام عبد الله، وهي بنت ابي بكر الصديق، واخت عائشة زوجة النبي. وكانت قد كف بصرها وبدا الهرم في وجهها، فحياها عبد الله وقبل بيدها، فقبلته وتنهدت ثم قالت: «ما وراءك يا بني؟ مالي اشم منك رائحة الحنوط؟».

قال: «اني اتحنط كل يوم استعدادا للموت، اما الآن فقد جئتك بحسن الذي ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لخطبة اختي رملة وقد اخبرته بقبول الخطبة بان خالدا لأهل لذلك».

فرفعت رأسها وهي تجيل عينيها المطبقتين كأنها تحاول ان تنظر الى ابنها، ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعتين تقطرتا من جانبي أنفها بغير ان يبدو للبكاء اثر في وجهها. فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها. ثم قالت: «لقد صنعت خيراً يا بني». وسكتت وكأن في نفسها شيئاً تكتمه ثم قالت: «في اي ساعة نحن من الليل الآن».

قال عبد الله: «نحن في الصباح». وما اتم كلامه حتى سمع في الخارج دوي شديد اعقبته صيحات الإستنكار من الواقفين بالباب الخارجي للمسجد، فأدرك حسن ان الهجوم قدبدأ، وان ما سمعوه هو صوت وقوع حجارة المنجنيقات على الكعبة. ونظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان القنوط في وجهه ثم التفت الى امه وقال: «لقد بدأ أعداؤنا هجومهم الاخير يا أماه، وقد آليت الا افعل أمراً الا استشرتك، فبماذا تشيرين؟».

فنظر حسن الى اسماء وتفرس في وجهها فاذا هي تزيح النقاب عن وجهها، ثم قالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لا من الخوف: «انت اعلم بنفسك يا بني، فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه اصحابك. ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية. وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد أنت، اهلكت نفسك ومن قتل معك. وان قلت: (كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت). فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين!».

فقال عبد الله: «انما اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي».

فقالت: «يا بني ان الشاة لا تتألم بالسلخ، فامض واستعن بالله».

فقبل عبد الله رأسها وقال: «هذا رأيي الذي اصر عليه حتى اليوم، ووالله يا أماه ماركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها. وما دعاني الى ذلك الامر الا غضبتي للحق ولقد زدتني برأيك هدى وبصيرة». ثم سكت قليلا، وقال: «اسمعي يا أماه، اني اشعر بأني مقتول في يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي الامر لله، فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في امان ولم يتعمد ظلم مسلم او معاهد. ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل انكرته. ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي».

فقالت وقد بان الجد في جبينها: «ارجو ان يكون عزائي فيك جميلا. ان تقدمتني احتسبتك، وان ظفرت سررت بظفرك. فامض لشأنك، والله معك، ولئن قتلت ففي سبيل الله».

ثم اتجه عبد الله الى حجرة اخرى ليودع اخته، وظل حسن واقفاً في انتظار عودته، فسمع اسماء تتأوه وقد رفعت وجهها وقالت:

«اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبره بأبيه وبي. اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين». فاستغرب حسن صبرها وقوة ايمانها ثم عاد عبد الله اليها وهم بتقبيل يدها، فأمسكت بيده وضمته الى صدرها قائلة «هذا وداع فلا تبعد».

فقال: «انما جئت مودعا فكأني بهذا اليوم آخر ايامي من الدنيا».

فخفق قلب حسن تأثراً، وترقرق الدمع في عينيه، ونظر الى اسماء فاذا هي لم يبد في وجهها ما يدل على التأثر، فعلم ان ثباتها فوق ما كان يسمعه عنها، ثم ما لبث ان سمعها تقول لعبد الله: «امض على بصيرتك وادن مني حتى اودعك». فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديها بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وقالت: «ما هذا صنيع من يريد ما تريد!». فقال عبد الله وقد بدا الخجل في وجهه: «ما لبسته الا لأشد به متني». فقالت: «انه لا يشد متنا. البس ثيابك مشمرة». فمد عبد الله يده الى الدرع ونزعها، ودرج كميه، وشد اسفل قميصه وجبته تحت ثنيات سراويله وأدخل اسفلها تحت المنطقة. ثم خرج».

مقتل ابن الزبير

خرج حسن في اثر عبد الله بن الزبير وقد عزم على البقاء معه حتى النهاية. وشعر عبد الله بذلك، فالتفت اليه وقال: «ناشدتك الله الا تعرض نفسك للقتل».

وكان حسن على يقين من فوز جند بني أمية، لكثرتهم واتحادهم، ولكنه ظل سائراً في اثره حتى خرجا من المنزل، فلما وقع نظر عبد الله على المنتظرين هناك وقد تهيأوا للقتال وغطت الدروع أبدانهم، قال لهم: «اكشفوا وجوهكم حتى انظر اليكم». ولما كشفوها علم انهم بقية أهله فقال: «يا آل الزبير لو طبتم بي نفساً عن انفسكم كنا اهل بيت من العرب اصطلحنا في الله. فلا يفزعكم وقع السيوف فان الم الدواء للجراح اشد من الم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرىء قرنه، ولا تسألوا عني فمن كان سائلاً عني فاني في الرعيل الاول. احملوا على بركة الله».

وبقي حسن حائراً لا يستطيع الاشتراك في القتال، نزولا على رغبة ابن الزبير. وحتى لا يراه الحجاج او بعض رجاله فيثبت لديهم ما اتهمه به عرفجة. فآثر الالتجاء الى المسجد حتى تنتهي المعركة. فلما مضى عبد الله ومن معه الى القتال التفت فرأى اعلام بني امية قد ملأت الطرقات، فسارع الى المسجد الحرام، ولكنه لم يستطع الدخول، لأن الحجاج كان قد اوقف ببابه اناساً ليمنعوا الناس من دخوله، فدخل منزلا الى جوار المسجد وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الاسود، وينتقل في المعمعة من جهة الى اخرى، وبجانبه ابن صفوان يدافع عنه، ثم سمع عبدالله يقول: «ويلمه فتحاً لو كان له رجال». فقال له ابن صفوان: «أي والله وألف». فحدثت حسن نفسه بأن يمضي اليهما ويقاتل معهما، ثم لاحت منه التفا تة فرأى الحجاج قد ترجل واقبل يسوق الناس الى مقاتلة ابن الزبير بعد ان رآهم لا يقوون على الوقوف بين يديه، وكان حامل علم ابن الزبير يقف بباب شيبة من أبواب المسجد، فهجم الحجاج عليه بمن معه، فرآهم ابن الزبير فسارع الى صدهم عنه، واستمر القتال على أشده بباب المسجد، ثم دخله الفريقان، ولم يمض قليل حتى استطاع الحجاج ورجاله قتل صاحب العلم واخذوه منه، فتفرق رجال ابن الزبير من حوله، ولكنه ظل يقاتل حتى قتل هو وابن صفوان، ثم رأى حسن رجلا اسرع الى جثة عبد

الله وحز رأسه وحمله الى الحجاج، فلما رأى الحجاج الرأس سجد واكرم صاحب البشارة. ثم أمر بأن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة، وبأن تصلب جثة ابن الزبير في الحجون ـ وقد صلبوها اياما ـ وهكذا ايقن حسن بانتصار الحجاج، وتذكر ان سمية عنده في المعسكر، فرأى ان يسارع اليها فيه، فاما نجا بها، واما عاد الى محبسه، وسرعان ما تسلل الى المعسكر، وهو يحاذر ان يراه احد ممن يعرفونه فيحبط مسعاه، وقال في نفسه: «لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان واصبحت الخلافة لا ينازعه فيها منازع». وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسميةٌ هينة فمشى وهو لايزال بلباس الحرس والحربة بيمينه فلا يشك الذي يراه عن بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفراً قليلاً من الحامية. فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياة والشوق. فبينما هو يرجو السعادة بالفرار بسمية كان يعد الفرار عاراً، ولكنه هونه على نفسه لأنه لا يرى غير الفرار سبيلاً الى نجاته،والا فانه سيكون سبباً لتعاسة سمية او قتلها. فمشى في طريقه الى المعسكر، وهو في ملابس الحراس التي اخذها من خادمه، فلما بلغه رأى أن يذهب أولا الى خيمة السجن ليرى ما تم في أمر خادمه الامين وليستعين به على انقاذ سمية، فلما بلغ الخيمة رآها خالية، فوقف برهة يفكر في الامر، ثم رأى ان يعجل بالذهاب الى سمية في الخباء لئلا تفوت الفرصة. وفيما هو سائر وقد اوشك ان يبلغ الخباء سمع صوت أبواق، فالتفت فرأى جماعة من الفرسان عائدين من مكة، فأسرع في مشيته ليبتعد عنهم. وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله أحداً وخشي ان تحول بغتة سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها، لأنها لم تره منذ خروجه من المدينة، فتمهل في سيره، واخذ يبحث لمعرفة مدخل الخباء ومخرجه، وهل سمية وحدها، أم عندها أحد من النساء أو الخدم أو غيرهم.

وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه، فأصاخ بسمعه فرأى شبحاً خارجاً، وما تفرس فيه حتى أدرك انه أمة الله جارية سمية، ولم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع بأوصافها. اما هي فكانت قد رأته في دار عرفجة بالمدينة، فلما رأته والحربة في يمينه وعليه ثياب حراس الحجاج، استعاذت بالله، ثم ما لبثت ان تفرست فيه فعرفته وقالت: «حسن؟».

قال: «نعم. اين مولاتك؟».

قالت: «هنا». واشارت الى الخباء الذي خرجت منه.

قال: «وكيف حالها؟» قالت: «انها في حال تدعو الى الرثاء حزنا عليك، وخوفاً من ذلك الظالم ولاسيما بعد ان فرغ من الحرب، وقتل ابن الزبير، فتحلل بذلك من قسمه».

فاضطرب حسن وهم بالدخول الى الخباء ولكنه خشي أن تسيء البغتة الى سمية فقال لأمة الله: «ادخلي وانبئيها بقدومي لنخرج معا من هنا الان».

فدخلت أمة الله، ولم يصبر حسن الا قليلا ثم دخل في أثرها فوجد سمية جالسة وهي تفرك عينيها بأناملها وتنظر الى امة الله وتقول: «أصحيح ما تقولين؟ حسن هنا؟ حسن جاء؟!. لا.. لا.. انك تمزحين، أو أنا في حلم!».

ولاحظ انها قد تغيرت وامتقع لونها لفرط ما قاسته، فازداد خفقان قلبه، وأجابها بدلا من امة الله فقال: «بل أنت في يقظة يا حبيبتي. وها انذا جئت لانقاذك، هلم بنا نخرج الآن من هذا المعسكر، هيا يا سمية فان الوقت ضيق والخطر قريب».

فوقفت وركبتاها تصطكان، ولبست نعالها والتفت بعباءتها، وقالت وهي مازالت مذهولة: «ما احسن هذا اللقاء، هلم بنا».

وكانت امة الله مشتغلة بأخذ بعض الطعام للتزود به خلال الرحيل، ولكنها كانت اكثر منهما انتباها لما حولها فسمعت وقع حوافر خيل قادمة من بعيد فأسرعت اليهما وهي تقول: «لقد جاء الفرسان. واظنهم الحراس الذين كانوا حول الخباء بالامس».

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف: «حسن. حسن. لا تخرج فانهم اذا رأوك خارجاً اشتدت شبهتهم فيك.. لا تخرج. واذا كانوا قد جاءوا للقبض عليك فلنمت معاً»

فثارت الحمية في رأس حسن، وهان عليه لقاء الالوف تفانياً في الدفاع عنها فقال: «لا عاش من يمسك بسوء وأنا حي».

وشعروا باقتراب الخيل من الخباء، وكان الليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثف فأمسكت سمية بيد حسن، وقالت وهي ترتعد: «اما ان نعيش معا، واما ان نموت معاً». ولا تسل عن خفقان قلبيهما تأثراً للقاء الفجائي، وما صحبه من بواعث الاضطراب لقدوم أولئك الفرسان، فبقيا واقفين صامتين، وقد امتقع لونهما وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما، ومع ذلك كان حسن يشعر بأنه اشد بطشاً من الأسد، وبأنه قدير على انقاذ سمية من جيش بأكمله. وكذلك كانت سمية قد انساها اللقاء كل خوف على نفسها، واصبح كل همها الا يصاب حسن بسو، فأمسكت به وهي لا تدري أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء، أم تفر هي معه وفي فرارها خطر عليه، أم تستبقيه في الخباء معها وفي بقائه تهمة كبرى؟

مرت كل هذه الهواجس بهما في لحظة انتظارهما وصول الفرسان القادمين، ومعرفة ما وراءهم، فلما وصل الفرسان الى الخباء، أحدقوا به من جميع الجهات ولكنهم ظلوا مرابطين خارجه، كما كانوا بالأمس، فاطمأن قلب حسن ورجح أن قدومهم ليس لشبهة أو تهمة جديدة.

فأخذ يهدئ روع سمية حتى سكن جاشها، وقضيا ساعة يتبادلان الأحاديث، وقد نسيا الحجاج وفرسانه، وحسبا انهما في مكان غير ذلك المكان، بل خيل لهما ان أولئك الفرسان انما

هم ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما، في تلك الساعة التي تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها .

■

وبينما حسن وسمية سابحان في ملكوت المناجاة، يتشاكيان ما مر بكل منهما من أحداث الفراق سمعا طنين سهم مرسل في الفضاء، ثم سمعا صوت ارتطامه بعمود الخباء من الخارج . وكانت امة الله مشغولة ببعض الشؤون في طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت صوت وقوعه أطلت من الخباء فلم تر غير الفرسان ثم رأت السهم يستقر في العمود، فخفت الى مكانه وانتزعته فاذا في موضع الريش منه رق مقوى، فعادت به مسرعة الى حسن ففتحه فاذا هو كتاب من عبد الله خادمه يقول فيه: «اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما وارسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين» .

فاضطرب حسن وايقن بوقوعهما في الخطر، ولم ير بدا من تهيئة كل اسباب الاطمئنان لسمية، وكانت قد قرأت الكتاب معه فامتقع لونها وتملكها الجزع فابتدرها قائلا: «لا بد لي من الذهاب الى الحجاج بنفسي، فاني لا اظنه ارسل في طلبي الا معتقدا اني فررت من محبسي بالأمس» .

فقطعت كلامه قائلة: «أتذهب الى الحجاج وأنت تدري ما يكون منه؟ . اعوذ بالله من شر هذا الرجل. انه لا يعرف غير القتل وسفك الدماء. ولا شك في ان نقمته عليك قد اشتدت بعد ان علم بأنك عندي هنا. يا ليتني مت قبل هذا. دعني اذهب بدلا عنك فأذهب فداء لك، فاني مقتولة على اي حال».

فوضع يده على كتفها وقال: «لا أرى الأمر يقتضي كل ذلك، ولئن قتلت فما كنت أنت سبب قتلي، وعسى ألا أقتل، وقد كنت استطيع الفرار بنفسي من بين ايدي هؤلاء الفرسان، ولكني لا اريد النجاة وحدي، وأخاف اذا خرجت معي ان تقعي بين ايدي أحدهم فتلحقك اهانة، وهي عندي شر من القتل. اما ذهابي الى الحجاج بنفسي فانه أحفظ لشرفي وشرفك، وما يأتي به القدر لا مناص منه. هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه أمير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحملوا رأسه الى المدينة، وقد استقبل الموت باسمًا وأمه تشجعه على استقباله، فلا توهني عزيمتي، ولا تخوفيني لقاء الحجاج، ولكن اذا قدر لي الموت فاذكري انني ذهبت شهيداً في سبيل هواك. قال ذلك واختنق صوته، فتساقطت دموعها على خديها تأثراً، وكانت مطرقة فرفعت وجهها ومدت يدها الى جيبها وأخرجت لفافة السم وقالت: «ليطمئن قلبك فقد اعددت ما يلحقني بك اذا اصابك سوء. وهب انك نجوت وأراد هذا الظالم ان يتخذني

زوجة له بالفعل، فان هذا السم كفيل بانقاذي من ذلك» .

فأعجب حسن باخلاصها له وأنفتها وقال «الحق ان مثل عواطفك النبيلة هذه لا تكافأ بأقل من الروح، ولكنْ عسى الله أن يأتي بالفرج» .

ثم رفع يده عن كتفها وقال: «استودعك الله يا سمية وموعدنا غدا ان شاء الله». قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول ان تثنيه عن عزمه بدموعها. فلما صار خارج الخباء صاح بأعلى صوته: «اين عريف هذه الكوكبة؟» .

فتقدم اليه فارس منهم وقال: «وماذا تريد منه؟» .

قال: «اريد ان يهديني الى فسطاط الامير لأذهب اليه» .

فقال: «لم يأذن لنا الامير في الرجوع اليه، وانما امرنا ان نحرس هذا الخباء حتى يأتي هو، ولعله آت الساعة» .

فأدرك حسن ان ذلك تدبير عرفجة، وانه أراد أن يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليثير غيرته، فاعتزم ان يحبط محاولته فقال: «ولكنني في حاجة الى رؤية الامير الساعة» .

قال الفارس: «لا يمكنك الخروج من هذا المكان» .

قال: «لا بد من خروجي». ثم هم بالعدو ليذهب توا الى خيمة الحجاج ويحاول احباط مكيدة عرفجة، ولكن الفارس حذره قائلا: «خير لك ان تمكث هنا» .

فقال: «واذا لم امكث؟» .

قال: «اننا مأمورون بابقائك هنا حيا. ريثما يجيء الامير» .

فأدرك حسن ان الحجاج انما أراد الابقاء عليه ليبحث التهمة التي وجهها الى عرفجة في شأن الكرسي، فتجلد وقال: «اقول لكم لا بد من ذهابي الساعة الى الامير، والا خذوني الى السجن امكث فيه الى الصباح». قال ذلك ومشي فتجمهروا حوله ليمنعوه، واذا بفارس أقبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان، فلما رآه حراس الخباء تهامسوا فيما بينهم ثم ترجلوا. ففهم حسن ان الحجاج وحاشيته هم القادمين. فوقف ينتظر ما يكون .

وكان الحجاج مازال بثيابه التي حارب فيها ابن الزبير وقد غطته الدروع هو وجواده وعليها بقع الدماء. فلما اقبل قال للفرسان: «ماذا تفعلون هنا؟» .

فقال عريفهم: «نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج» .

قال: «ومن أمركم بذلك؟» .

قال: «أمرنا به عرفجة باسم مولانا الامير» .

فأطرق الحجاج وقد ادرك ان عرفجة لا هم له الا الايقاع بحسن ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء هذا الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفجة، وانما جاء الى خباء نسائه لأنه تحلل من قسمه

بعد مقتل ابن الزبير، فلما علم بما امر به عرفجة، سأل العريف: «وهل حاول أحد الخروج؟» فقال العريف وهو يشير الى حسن: «وجدنا هذا الرجل خارجاً، وطلب الذهاب الى الامير» .

ونظر الحجاج الى حسن، فلما عرفه تحقق صحة ما اتهمه عرفجة به، وعظم عليه ان يراه خارجاً من خباء نسائه. فهم بأن يأمر بقتله ولكنه تذكر التهمة التي وجهها الى عرفجة فرأى ان يصبر عليه الى الغد حتى يثبت التهمة على عرفجة، ثم يقتلهما معاشر قتلة.

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة، فكظم غيظه ريثما يتحقق الامر فقال: «خذوه الى السجن وموعدنا الغد» .

فسر حسن لذلك التأجيل، ومضى مع الحراس وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية غيرة عليها منه وان كان زوجها .

محاكمة حسن وعرفجة

قضى حسن ليلته في السجن وعليه الحراس . وفي الصباح ساقوه إلى فسطاط الامير باكراً وقد أمر الحجاج ألا يحضر المجلس أحد غير غرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف وسط الفسطاط، وظل عرفجة جالساً بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظاً ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له: «لقد كنت في السجن من قبل، فكيف خرجت منه؟» .

قال حسن: «خرجت منه لأمر اقتضى هذا الخروج، ثم عدت اليه طائعاً ولو انني اردت الفرار ما رجعت» .

فقطع عرفجة كلامه وقال ساخراً: «ذهبت لأمر ضروري؟ . اما ذهبت الى عدونا وكنت في منزله طول ليل أمس، واذا كنت قد رجعت ذلك لكي تذهب الى الخباء. لا الى الحبس» .

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر الغضب فيها وأدرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه فأراد تخفيف غضبه فقال: «لا اجهل اني جاوزت الحد بتكلمي في حضرة الامير، ولكنني لم استطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه، فهو يوهمنا انه ليس من الاعداء، ولا من الجواسيس، ثم يفر من اليسجن ليلا ويحمل أخبارنا الى عدونا، ويرجع بعد ذلك لكي يوهمنا انه رجع الى السجن بينما الامير قد رأى بنفسه لأي شيء رجع » .

فأدرك الحجاج ان عرفجة يعرضُ بوجود حسن في الخباء ليثير غضبه عليه فيأمر بقتله توا قبل استكمال التحقيق، فصبر والتفت الى حسن وقال: «لا يهمنا السبب الذي خرجت لأجله الى ابن الزبير، فانك متهم عندنا في أي حال. وسنبحث امر دخولك خباء نسائنا فيها بعد. اما الآن فانك اتهمت صديقنا بالامس، ونريد ان نعلم ما حملك على هذا الاتهام، واي دليل على صحته لديك؟» .

فاضطرب عرفجة لعودة الحجاج الى التحقيق في تهمته، وخاف عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس يصغي لما سيقوله حسن، فقال هذا: «اما كونه خائناً لدولة بني أمية فأمر لاشك فيه، وقد رأيته بعيني واقفا بين يدي محمد بن الحنفية في الشعب، ومعه الكرسي الذي كان المختار بن أبي عبيد يسميه كرسي علي، ويستغله في الدعوة

الى بيعة ابن الحنفية. وقد سمعته يطلب من محمد امداده بالمال للخروج على بني أمية في العراق، والدعوة الى بيعته لأنه في زعمه أولى من بني أمية بهذا الأمر.

وكان الحجاج مصغياً لما يسمعه وهو يتفرس في حسن ويراقب حركاته وسكناته فرجح انه صادق في دعواه. فقال له: «ثم ماذا؟».

قال: «أما ابن الحنفية فاستخف بطلب عرفجة وردعه عن القيام بهذا الامر، ثم أمر باحراق الكرسي، فأحرق بين يديه، واخرج عرفجة من عنده مهاناً».

ورأى عرفجة ان الحجاج أوشك ان يصدق دعوى حسن ضده، فلم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالخداع والمغالطة، فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال: «اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثيراً في نفس مولاي فليأمر بقتلي حالا، ولكن هذا الغلام كاذب في كل ما ادعاه، وقد اختلق هذه التهمة ليخفف بها ذنبه الذي لم يرتكبه أحد قبله».

فقال حسن: «أما ذنبي فلا أنكره، وسأبسطه لمولاي، وله ان يحكم بعد ذلك بما يشاء، وأما أنت..».

فقاطعه عرفجة قاصداً ان يشغل الحجاج عن ذنبه هو، وقال له: «ان ذنبك لا يحتمل الانكار لأنه ظاهر للعيان. واما اتهامك اياي بالمروق من دعوة بني مروان فاختلاق محض لم نسمع بمثله. وأغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة دليل عليه، ويستحيل ذلك عليك». قال ذلك وجلس وكأنه فاز على خصمه بالحجة والبرهان.

ولكن الحجاج لم يعبأ بذلك فالتفت الى حسن وقال: «لا تصح دعوى بلا بينة، فما هي بينتك على ما تقول؟».

قال: «لقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سراً ولم يكن معهما ثالث».

فصاح عرفجة: «اسمعت يا مولاي؟ أرأيت تناقض اقوال المنافق الكذاب؟. اذا كان ذلك الامر حدث سرا بين اثنين.كما قال الآن فما الذي أطلعه على هذا السر؟!. ان جهله أبى الا ان يوقعه في شر اعماله لانه لم يحسن سبك اكذوبته».

وشك الحجاج في صدق حسن فقال له: «لقد صدق عرفجة، فانك زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته على انك رأيت وسمعت، فكيف تقول بعد هذا ان الحديث كان سراً بينهما ولم يكن معهما ثالث؟».

فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفجة، تجلد وقال: «نعم يا مولاي كان الكلام بينهما في فسطاط مقفل، ولكنني سمعت ورأيت خلسة!»

فقال عرفجة: «لقد بدا من تناقض أقوالك انك لم تسمع ولم تر، ولعلك تريد ان تستشهد بشريك لك في خداعك وكذبك، ولكني لا أقبل الا شهادة محمد بن الحنفية نفسه، فانك

اعترفت بأنه وحده الذي سمع حديثي» .

فقال الحجاج: «هذا طلب عادل، ما في ذلك شك» .

وهنا تذكر حسن انه أرسل بلالا الى ابن الحنفية ولا يدي ماذا كان من أمره معه فقال: «ان الامير أدرى مني بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة. لأننا اما ان نستقدم ابن الحنفية الى هنا، واما ان نذهب اليه أو نستكتبه . . » .

فقطع عرفجة كلامه وقال: «لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه» .

فقال الحجاج: «ذلك شيء يسير، وان ابن الحنفية مصدق عندنا وان لم يكن على دعوتنا » .

قال ذلك وتحرك عن وسادته كأنه يريد استئناف البحث، ثم التفت الى حسن وقال: «بقي علينا النظر في تهمتك ولكنها ليست تهمةتطلباثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه القحة ؟»

وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه أرسل من يأتي بشهادة ابن الحنفية، فلما فاجأه بهذا السؤال، اضطرب ولكنه تجلد وهم بأن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا: «أنا أروي لك الخبر كله يا مولاي، فانه يخجل أن يرويه » .

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فرفع صوته وقال: «لماذا أخجل؟. أأخجل لأني أنقذتك من الموت أنت وأهل بيتك؟. أم أخجل لأنك خدعتني بوعدك ثم نكثت غير مرة؟. اني لم أعمل عملا أخجل من ذكره». ثم وجه كلامه الى الحجاج وروى له باختصار قصته مع عرفجة منذ أنقذه في العراق. وكان الحجاج مصغياً الى الحديث باهتمام، فلما بلغ حسن الى سعي عرفجة في قتله قاطعه هذا قائلا: «لقد سعيت في قتله يا مولاي لأني رأيت معه كتاباً الى عبد الله بن الزبير الذي فر اليه بالامس، وقد أبلغت أمره الى طارق بن عمر وعامل المدينة فعده جاسوساً، وأرسل من يقتله. أما اني وعدته بابنتي فان مولانا الامير خطبها بعد ذلك فكيف أرفض شرفاً أولانيه الامير؟. والعجب كل العجب انه بعد ان علم بأنها زفت الى الامير ما برح يرجو الحصول عليها. وبلغ من قحته انه جاء الى هذا المعسكر محاولا اغراءها بالفرار معه. ولكن الله أوقعه في ايدينا وسجناه، ففر الى عدونا ليوقع بنا، ثم اغتنم اشتغال الامير وجنده بالقتال وعاد الى حيث رآه الامير بنفسه خارجاً من خباء سمية، فاذا كان الامير يرى الصبر عليه حلمًا، فاني لا صبر لي على مثل هذه الخيانة».

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب، وثارت غيرته فالتفت الى حسن وقال: «هل تنكر انك تحب سمية؟».

قال: «كلا».

قال: «وتقول ذلك بين يدي وأنت تعلم انها من نسائي؟».
فظل حسن ساكتاً، فقال له الحجاج: «وهل هي تحبك؟».
فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على نفسه فأراد الرفق بها فقال: «لا اردي..».

فقال عرفجة: «انها لا تحبه، ولكنها فتاة ساذجة استغل طيبة قلبها ليخدعها. ولاشك في أنها تفاخر كل نساء المدينة بما نالته من الحظوة لدى أمير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامي ذمار بني أمية».

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل: «لا انكر ان سمية نالت أحسن ما تتمناه فتاة بزواجها من مولانا الامير، ولكنك يا عرفجة لم تزف ابنتك الى الامير الا رغبة في المال، ولو مهرك هذا المال زنجي لزففتها اليه!».

فصاح عرفجة: «يا للقحة، أتقول ذلك في حضرة الامير وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة؟!». ثم التفت الى الحجاج وقال: «لقد كفاك يا مولاي صبراً وحلماً على من لا يستحق غير القتل والعذاب الاليم».

فالتفت حسن اليه وقال: «أتحرض الامير على قتلي يا عرفجة وانك لأكثر استحقاقاً للقصاص؟. انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التي تدعي انك تدافع عنها. وأما أنا فاذا قتلت فاني أذهب شهيد الامانة والحب الصحيح!».

فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال: «اسمعت يا مولاي؟ انه مازال يذكر الحب».

فقال حسن: «وهل الحب عار؟. نعم اني احب سمية حباً شديداً، كما اني أكره أباها كرهاً شديداً. ولا أبالي ان أصرح بذلك ولا أن أقتل في سبيله. أما أنت فانك ستقتل لأن شهادة ابن الحنفية آتية عما قليل، وهي قاطعة بخيانتك للدولة ولأمير المؤمنين».

وحانت منه التفاتة الى باب الفسطاط، فرأى بلالا قادماً من بعيد وقد علاه الغبار. فخفق قلبه، والتفت الى الحجاج وقال: «ارجو ان يأذن مولاي في ادخال هذا القادم، فهو رسولي الى ابن الحنفية، وعسى ان يكون قد عاد من عنده بكتاب يثبت صحة دعواي».

فقال الحجاج: «وأي رسول؟».

قال: «رسول كنت أنفذته الى ابن الحنفية في شعب علي ليستكتبه شهادة بما دار بينه وبين عرفجة من حديث الكرسي. وهذا الرسول كان معي يوم حريق الكرسي، فليأمر مولاي بادخاله لنرى ما جاء به».

فنادى الحجاج: «يا غلام». فدخل أحد غلمانه فقال له: «نرى رجلا قادماً برسالة

فأدخله علينا».

فعاد الغلام ومعه بلال. وأخرج هذا عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية، ثم أخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغتة في وجهه ورقصت لحيته على صدره ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم كأنه واثق بأن الكتاب يتضمن براءته. فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب التفت الى عرفجة وقال له: «لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة. وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان صحة ما اتهمك به هذا الشاب».

فهم عرفجة بأن يتكلم، ولكن الحجاج انتهره وقال: «لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناه من خلطك». ثم صفق فجاءه الغلام فقال له: «الي بالجلاد». فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلى رأسه عمامة مستطيلة وبيده سيف حاد. فأشار الحجاج بسبابته الى عرفجة وحسن وقال للجلاد: «ائتني برأسهما». فصاح عرفجة: «كيف تأمر بقتلي ولم تتحقق تهمتي؟. ان هذه الرسالة مزورة». وأخذ في الصياح حتى سمع صوته كل من في المعسكر فغضب الحجاج وصاح في الجلاد: «هات رأس هذا أولا». وأشار الى عرفجة.

فجر ه الجلاد حتى اركعه في الفناء ونزع عمامته عن رأسه، فأخذ يلتفت الى الحجاج وهذا معرض عنه، ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه والناس ينظرون.

ووقف الجلاد بين يدي الحجاج وسيفه يقطر من دماء عرفجة، فأشار الحجاج الى حسن وقال للجلاد: «وهذا أيضاً».

فأمسك الجلاد بطوق حسن وأراد جره الى الخارج. فقال حسن للحجاج: «أتقتلني بعد أن رأيت صدقي واخلاصي؟».

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال: «أتسألني لم أقتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام؟. انما صبرت عليك حتى تحققت خيانة ذلك الغادر»

فقال حسن: «اذا لم يكن بد من قتلي فاقتلوني داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس».

فقال الحجاج: «أتشترط علينا؟». ثم التفت الى الجلاد وصرخ فيه قائلا: «أقتله يا جلاد والا قتلتك!».

فعاد الجلاد الى حسن وهم بجذبه، فقال حسن: «لا تجذبني هكذا، فما أنا بخائف من الموت، رغم أني واثق ببراءتي». قال ذلك ومشى نحو الباب.

وفيما هما يهمان بالخروج، علا صوت قعقعة وسمع الحاضرون معها قائلا يقول: «البريد. . البريد. . بريد أمير المؤمنين».

وكانت عادة الولاة اذا جاء البريد ألا يمنعوه أو يؤخروه لحظة واحدة فلما سمع الحجاج بوصوله صاح قائلا: «ادخلوه».

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد أنهكه التعب وتعفرت ثيابه، فترامى عند قدميه وسلم اليه كتابا مختوماً. وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكن عينه ما كادت تقع على ذلك الكهل حتى بغت اذ عرف انه صديقه أبو سليمان، وتذكر أنه كان قد أرسله الى خالد بن يزيد في الشام ليأتي منه بكتاب في شأن رملة الى ابن الزبير، فهم باستئذان الحجاج في كلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله، ليكلفه ابلاغ خالد رضاء ابن الزبير وان رملة في انتظاره لتزف اليه فيكون قد أتم مهمته قبل موته .

ورفع حسن وجهه الى الحجاج فرآه تناول الكتاب ونظر الى خاتم الخلافة على ظاهره، ثم قبله ووقف تعظيمًا للخلافة. ثم نظر الى الرجل الذي حمله وقال له بعد أن تفرس فيه: «من أين لك هذا الكتاب؟. أأنت من عمال البريد؟».

فقال أبو سليمان: «لست منهم يا مولاي، ولكنهم حملوني على دواب البريد تعجيلا بابلاغ هذه الرسالة». قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف.

ففض الحجاج خاتم الكتاب وفتحه، وجعل يعيد قراءته ويتثاءب ويحك شفتيه بأصبعه ويعبث بشعر لحيته وقد ظهر التأثر في عينيه. ثم أخذ ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل في ختمه ويقلبه بين يديه، كل هذا وأبو سليمان مازال مستلقياً عند قدميه وهو يلهث من التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر في وجهه، وكلهم سكوت ينتظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب .

وأخيراً أشار الحجاج الى الجلاد بالانصراف فانصرف، ثم صرف بقية الحاضرين ولم يبق في الخيمة الا هو وحسن وأبو سليمان. فالتفت الى حسن وقال: «هذا كتاب من أمير المؤمنين جاءني بما كنت تبغيه أنت. ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن في الارض من ينجيك من القتل».

فلما سمع حسن ذلك أبرقت أسرته ولكنه لم يطمئن تماماً لأنه لم يفهم فحوى هذا الكتاب، فأطرق وظل ساكتاً، فنادى الحجاج: «يا غلام». ولما أقبل غلامه قال له: «ادع الكاتب فخرج ثم عاد بالكاتب فدفع الحجاج اليه الكتاب وقال: «أتل هذا علينا». فتلاه وهذا نصه:

«من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، الى الحجاج بن يوسف أمير جندنا في الحجاز، أما بعد فقد بلغني انك خطبت ابنة عرفجة المنافق، وهي مخطوبة لحسن، فأخذتها وحرمته منها. والرجل ينتمي الينا وتهمنا رعايته، فاذا أتاك كتابي فاحمل الفتاة الى خطيبها، وأمهره بما

يقوم بالنفقة. ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه أهون علي من ارتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا. وثقتي انك فاعل ما أقول والسلام» .

فلما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رقص قلب حسن طرباً، وخيل اليه انه في حلم، فجعل ينظر الى ما حوله ليتحقق انه في يقظة، ثم سمع الحجاج يقول له: «لم نتل الكتاب عليك الا لتعلم أننا ما تجاوزنا عنك الا عملا بأمر أمير المؤمنين» . والتفت الى غلامه وقال: «أعطه الف دينار. وسمية طالق منذ الآن. . فامض الى خباء النساء وأنبئها بذلك، لتخرج معه من هذا المعسكر قبل غروب اليوم». قال ذلك ووقف، فخرج حسن والغلام، وكان أبو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين، فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم بأن يخاطب حسناً وحسن يهم بأن يخاطبه..

وقبل أن يتكامل خروجهم، رأوا فارساً يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة في وجهه فلما وصل ترجل ودخل دون أن يستأذن وقال: «ان مصيبة حلت في خباء النساء».

فلما سمع حسن الصوت علم أنه صوت عريف الحرس، وخفق قلبه خشية أن تكون المصيبة حلت بسمية. ثم ما لبث أن سمع العريف يقول: «ان مولاتنا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت سما أو أصابها الموت بغتة!».

فأحس حسن كأن جبلا سقط على رأسه وكاد يفقد رشده وشغل عما كان فيه من سؤال أبي سليمان عن الطريقة التي حصل بها على ذلك الكتاب، ثم لم يسعه الا ان يعدو نحو خباء سمية ولم يكن ابو سليمان اقل بغتة منه، اذ جاء ذلك الخبر صدمة قوية أطارت صوابه، فسار في اثر حسن الى الخباء، وسار في أثرهما بلال وغلام الحجاج .

وكانت سمية قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه أمام خبائها، كما سمعته وهو يأمرهم بأخذ حسن الى السجن الى الصباح، وأيقنت أن الحجاج قاتله لا محالة. ولكنها تعللت بالآمال البعيدة وصبرت حتى ترى ما يكون في الغد، فقضت ليلتها تفكر في مصير حسن، وأصبحت وقد اعدت السم وجلست وراء الخباء، تستطلع انباء المحاكمة من الحراس. فلما جاءها أحدهم بمقتل أبيها وأخذ حسن لقتله أظلمت الدنيا في عينيها، وكانت أمة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عليها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها، وبعد قليل جاءها أحد الحراس بنبأ قتل حسن داخل خيمة الحجاج، فسارعت الى السم وابتلعته مرة واحدة ثم وقعت مغشياً عليها. فصاحت أمة الله وولولت، وأخبرت الحراس أن مولاتها تجرعت السم فأسرع أحدهم على جواده بالنبأ الى الحجاج.

وظل حسن يعدو نحو الخباء، وهو لا يكاد يرى طريقه، ولا يبالي ما يعترضه من الاحجار أو الأوتاد حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعي ما يقول: «سمية. . سمية. . أنا حي يا سمية».

ولما وصل الى الخباء أراد الفرسان منعه، ثم تركوه بعد أن أخبرهم الغلام بأمر الحجاج فأطل من الباب فرأى سمية مستلقية وحولها نسوة يبكين، وكأنها جثة بلا روح وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها .وابيضت شفتاها فلم يتمالك ان اندفع نحوها وفي يده خنجره فتفرقت النساء عنها، ثم أخذ يجس يدها ويقول: «حبيبتي. . روحي. . منيتي. . ماذا أصابك؟. تجرعت السم يأسا من حياتي؟. اني حي يا سمية. . سمية اما ان تحيي مثلي او اموت مثلك!».

ولما ايقن بموتها، هم بأن يطعن نفسه بالخنجر، ولكنه شعر بيد أمسكت به وسمع صوتاً يناديه: «تمهل يا حسن، ان سمية حية لا بأس عليها». فالتفت فرأى ليلى الأخيلية وبيدها كوب ماء جاءت لترش سمية به». فقال لها: «ماذا تقولين؟. كيف تحيا سمية وقد تجرعت السم؟!. انه كاف لقتل أشد الرجال!».

فقالت ليلى: «ان الذي تجرعته ليس سما فلا تخف!».

فوقف ذاهلا ثم قال لليلى: «لا تعلليني بالأوهام، ان سمية قد ماتت ولا بد لي من أن أموت لأنها ماتت لأجلي».

قال ذلك ورفع يده بالخنجر فصاحت فيه ليلى: «تمهل يا حسن، ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها في غيبوبة».

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به فحركت رأسها ثم حركت شفتيها وقالت: «حسن. . . حسن. . . قتلوك قتلهم الله!. اني ذاهبة اليك».

فلما سمع صوتها جثا عند رأسها باكياً وقال لها: «سمية. . أنت حية يا حبيبتي؟. . انظري الي. . أنا حسن. . . أنا حي يا حبيبتي وقد انقذني الله. . افتحي عينيك يا سمية».

ففتحت عينيها فلما رأته قالت: «ما هذه الأحلام. . حسن؟. أين نحن يا حسن؟».

فأجابها: «نعم أنا حسن يا سمية».

فجلست والقت نفسها عليه وأخذت في البكاء، فقال لها: «لا تبكي يا سمية انني في خير».

فقالت له ليلى: «دعها تبكي لتنفس كربتها وتصحو من سكرتها». فسكت وترك سمية تبكي وتشهق، ثم رآها ترفع رأسها وتنظر الى وجهه وتصيح: «حسن حبيبي. . هل أنا في يقظة أم في منام؟».

فأجلسها بجانبه وهو يقول لها: «انظري يا سمية، ها أنذا حي، وهذه صديقتنا ليلى. ان اسباب تعاستنا قد زالت والحمد لله».

فقطعت كلامه قائلة: «والحجاج؟. الحجاج؟». وعادت الى البكاء.

فقال لها: «لقد جاء أمر الخليفة بأن يطلقك، ويردك الى خطيبك، وسنخرج اليوم من هذا المعسكر». فحدقت بنظرها فيه كأنها تتحقق ما يقول، فأقسم لها بحبها أنه ما قال إلا الحق.

سكن روع سمية بعد ان اطمأنت الى نجاتها ونجاة حسن، ثم التفتت الى من حولها فرأت أمة الله جاريتها، وليلى الأخيلية، وهند زوجة الحجاج، فقالت: «ان السم تأخر فعله، أليس كذلك؟».

فقالت ليلى: «انك لم تتجرعي الا دقيق الذرة. وأما السم الذي ظننت أنك تجرعته فهو معي». قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم وقالت: «ألا تذكرين الليلة التي بت فيها عندك؟. انني غافلتك وأبدلت بالسم دقيق الذرة، لأني خفت أن تعجلي بتجرعه دون ما يدعو الى ذلك، فالحمد لله على نجاتك».

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت: «جزاك الله خيراً». وكذلك شكرها حسن ثم قص عليهم ما دار بينه وبين الحجاج حتى أتى على ذكر ابي سليمان وكيف جاء في ابان الضيق فكان السبب في نجاته من الموت، كما كانت ليلى سبباً في نجاة سمية منه. وكان أبو سليمان واقفاً خارج الخباء فناداه حسن فدخل وهو يقول: «هل يدخل عبد الله؟».

قال حسن: «اي عبد الله؟».

قال: «خادمك».

قال: «فليدخل. اني أعهده صديقي».

ثم دخل عبد الله وهو يقول: «لا تظن اني تخلفت عن خدمة مولاي، ولكني أصبحت بعد اخراجك من السجن موضع غضب عرفجة، فلم أعد استطيع الظهور وبقيت متخفياً أتنسم الأخبار. فلما تحققت نجاتك جئت لأكون في خدمتك».

وكانت سمية قد صحت وتحققت أنها فازت بحبيبها وانها نجت من أبيها فثبتت بصرها في حسن، وثبت هو بصره فيها، واكتفيا بتفاهم اللواحظ، ثم قال لها: «الى اين تودين الذهاب، واين نقيم؟».

فأجابه أبو سليمان على الفور: «تقيمان عندنا بالمدينة».

فقال حسن: «لقد اذكرتني أمر رملة، هل أتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير. وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك؟».

فقص أبو سليمان قصة سعيه في ذلك الامر على يد خالد ثم قال: «وأما ابن الزبير فقد جئته بالكتاب ولكنه واأسفاه عليه قتل ولا ندري ما تم بأهله».

فقال: «أهله في مأمن بمكة، وقد صرح لهم قبل موته بقبوله مصاهرة خالد. وبعد عودتنا

الى المدينة سأبعث عبد الله الى خالد بالخبر ليبعث من يحمل رملة اليه».

ثم التفت الى ليلى وقال لها: «لن أنسى لك جميلك ما حييت، ويكفي انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم أبو سليمان سبباً لبقائي».

فقالت ليلى: «لا فضل لي في ذلك وقد فعلته لأني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم، ولا اظن أحداً من هؤلاء أدرك من حالكما ما أدركته». قالت ذلك وشرقت بريقها.

فأدرك حسن انها تشير الى قصتها مع توبة، فشكر الله وسكت حتى لا يثير عواطفها.

ثم وقف أبو سليمان وقال: «كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم، وكل شيء يجري بقضاء من الله سبحانه وتعالى. هلم بنا الآن نستعد للرحيل».

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوجة الحجاج وقالت: «أرجو ان يوفقك الله الى سبيل تنجين به كما نجوت أنا».

فتلألأت الدموع في عيني هند ولم تجب.

■

وفي أصيل ذلك اليوم شدوا الرحال وساروا جميعاً قاصدين المدينة، ما عدا ليلى فانها التمست وجهة أخرى. ولما وصلوا ساروا توا الى بيت عرفجة وقد أصبح بما فيه ارثا شرعيا لسمية. وكذلك كل ما كان يملكه.

وفي يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم. واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا شهدته سكينة بنت الحسين وكثير من سكان المدينة، واكثرهم كانوا يكرهون عرفجة، وغنى ليلتها طويس، كما غنت عزة الميلاء، وأجاد اشعب الطماع في المجون حتى كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك. وبعد انتهاء العرس سار عبد الله الى خالد في دمشق ومعه كتاب من حسن بتفصيل ما حدث في شأن رملة وقبول عبد الله بن الزبير خطبته لها فجاء خالد وتزوج رملة كما هو مدون في التاريخ.

تمت

مراجع هذه الرواية

* صفوة الاعتبار
* مراصد الاطلاع
* الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
* التقويم العام
* البيان والتبيين
* تاريخ: ابن هشام ـ ابن الأثيرـ الدميري ـ ابن خلكان ـ الفخري
* المستطرف
* الدر المنثور
* مشكاة المصابيح
* البخاري
* مقدمة ابن خلدون
* أسد الغابة
* العقد الفريد

طبع هذا الكتاب على مطابع

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

بيروت . شارع سوريا

تلفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠

وُلِدَ جُرجي زيدان ، مؤلف سِلسِلة « روايات تاريخ الإسلام » هذه في بيروت سنة ١٨٦١ وعاش في القاهرة حيث توفي هنالك سنة ١٩١٤ م . وهو يُعتبر من خيرة رجال النَّهضة الثقافيَّة العربيَّة الحديثة ، إذ بالإضافة إلى آثاره العظيمة التي عرفته كباحثٍ عظيم الجلد مِنْ مثل « تاريخ التَّمدن الإسلامي » و « تاريخ آداب اللغة العربيَّة » و « تراجم مشاهير الشَّرق » والكثير من الأبحاثِ المختلفةِ. بالإضافة إلى ذلك نجده ذا رسالة هامَّة أدَّاها بتبسيطه للتَّاريخ العربي ووصفه لبيئته ودقائق حوادثه ودوافع البطولة فيه. وقد تفرَّد بإنتاج مجموعةٍ من الروايات التاريخيَّة في هذا المجال كانت النَّافذة الأمينة التي أطلَّ منها القارئ العربي الحديث بشوقٍ على تاريخ قومه ومزايا أبطالهم .

فلقد كان جرجي زيدان بحقٍّ رائدًا مِنْ أفضل روَّاد النَّهضة العربيَّة الحديثة . ولئنْ جاراه الآخرون في أبحاثه التَّاريخيَّة والأدبيَّة فسيبقى متفرِّدًا بينهم كفنَّان فذٍّ في سلسلة كتبه هذه التي تصدر هذه الطَّبعة منها **دار مكتبة الحياة** ، ألا وهي « **روايات تاريخ الإسلام** » وهي :

سِلسِلة لا غنى للقارئ العربي عنها

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان